المستعصي على القول في شعر أدونيس
The unspeakable in Adonis's poetry

فتحـــي خليـفـي

Abstract

This study concerns the unspeakable in poetry in general and in Adonis's poetry in particular. However, our initiation into analyzing this phenomenon revealed to us the breadth of its dimensions, the overlapping fields of its application, the ruggedness of its flow within texts, and the complexity of its infiltration into discourses. Therefore, it was difficult for us to discern its manifestations in selected poetic samples from Adonis's corpus and to elucidate its functions within them. Our justification for taking Adonis's poetry as a research laboratory for the unspeakable is what we found in most of its examples a tendency to release language from its referential constraints and push it to escape the sway of it memory in a way that revealed its limits in capturing the "absolute", expressing the most horrific experiences and naming the hidden absent. Although we encountered in the adonisian poetic corpus various aspects that are difficult to articulate and hard to enumerate, we have sufficed, for methodological reasons, with reducing their "abundance" to a "scarcity" that we have summarized into two aspects: the aspect of metapoetry and the aspect of naming.

Keywords: Unspeakable, poetry, metapoetry, naming, unnameable.

ملخَّص

عقدنا هذه الدّراسة على المستعصي على القول في الشّعر عامّة وفي شعر أدونيس بصفة خاصّة. لكنّنا ما إن شرعنا في تدبّر هذه الظّاهرة حتّى اصطدمنا باتّساع أبعادها، وتداخل حقول استدعائها، وتوعّر طرائق جريانها في النّصوص، وتعقّد صيغ تسلّلها إلى الخطابات. لذلك عزّ علينا أن نتبيّن منازلها من عيّنات شعريّة منتخبة من المتن الأدونيسيّ وأن نستجلي أدوارها فيها قبل أن نجوِّد نظرنا في مفهومها ونبذل الجهد الضروريّ في استصفاء محدّداته واستجلاء كلّياته. ثمّ إنّ أكثر ما دعانا إلى اتّخاذ أشعار أدونيس مختبرَ بحثٍ في المستعصي على القول هو ما لاحظناه في أغلب أمثلتها من مداومة على إفلات اللّغة من قيودها الإحاليّة والدّفع بها إلى التّملّص من سطوة ذاكرتها على نحو تكشّفت معه حدودها في التقاط "المطلق"، والتّعبير عن التّجارب المرّوعة القصوى، وتسمية الغائب المقيم في الغيب.

ورغم أنّنا وجدنا للمستعصي على القول في المتن الشّعريّ الأدونيسيّ وجوهًا متشعّبة يصعب حصرها، فإنّنا لم نرَ، لاعتبارات منهجيّة قد لا تسلم من النّقص، مناصًا من ردّ "وفرتها" إلى "ندرة" عَزَوْناها إلى مستويَيْن: مستوى الميتاشعر، ومستوى التّسمية.

الكلمات المفاتيح: المستعصي على القول، الشّعر، الميتاشعر، التّسمية، المستعصي على التّسمية.

مقدّمة

"المستعصي على القول" (L'indicible) مفهوم بينيّ (Un concept interdisciplinaire) حظي بعناية الفلاسفة والمناطقة واللّسانيّين وعلماء تحليل الخطاب ونقّاد الأدب ومنظّريه حظوةً أدّت إلى تعدّد تعريفاته، وتنوّع مقارباته، وتباين وجهات النّظر إليه. ونحسب أنّ في هذا ما يفسّر استواءه مفهومًا مركّبًا غير منقطع عن التّقلّب والتّجدّد والتّحوّل. بل إنّه يزداد تركيبًا عندما نتساءل عن الصّلات الّتي يمكن أن تربطه بمفاهيم قريبة منه ومتقاطعة معه من مثل ما لا يُسمّى (L'innommable)، وما لا يوصف (L'indescriptible)، وما يتعذّر التّعبير عنه (L'inexprimable)... فكلّ مسعى إلى حدّ المستعصي على القول يبقى، في اعتقادنا، مسعى نسبيًّا ترتبط وجاهته النّظريّة والإجرائيّة بخصوصيّة الحقل المعرفيّ الّذي يتنزّل فيه وينضوي إليه. ومع هذا، فإنّه ليس لنا إلّا أن نعمل على ضبط ما نقدّر أنّه من محدّدات هذا المفهوم العامّة، أيًّا كان حيّز اشتغاله وأفق استدعائه. إذ يكفي أن نسلّم بأنّ المستعصي على القول هو، في أحد معانيه، ذلك الّذي يتعذّر قوله والتّعبير عنه حتّى ندرك أنّه لا يعدو أن يكون أمارة على نقص تعبيريّ (Un manque expressif)، وشاهدًا على عجز اللّغة وتعطّلها[1]. وقد اصطدم أبرز شعراء الحداثة العربيّة، بدءًا من اللّحظة الرّومانسيّة، بجدار هذه المعضلة، وحاولوا، كلّ على طريقته ووفق تصوّره الخاصّ وفي ضوء

ما تسمح له به أدواته الجماليّة، أن يذلّلوها ويتغلّبوا عليها. لذلك استحال الشّعر، مع عدد منهم، تدريبًا متواصلًا على ترويض المستعصي على القول، ودفعًا للّغة إلى الإقامة على حوافّه واختبار إمكاناتها في كتابته والتقاط أسراره.

إنّ ما دعانا إلى التّفكير في هذه المسألة هو وعينا بأنّ الالتفات إلى المستعصي على القول مُفْضٍ، ضرورةً، إلى إعادة النّظر في مفهوم الشّعر نفسه. فممّا هو مطّرد في أدبيّات الحداثة التّنظيريّة والنّقديّة أنّ الكتابة الشّعريّة الحقّ تتحدّد، من بين ما تتحدّد به، بأنّها كتابة نوعيّة سامية يتوقّف جانب من "سموّها" على توفّقها في قول ما لا ينقال، والتّعبير عمّا يتعذّر التّعبير عنه، وتسمية ما لا يُسمّى[2]. وهذا هو ما بدا لنا هاجسًا مستبدًّا بأشعار أدونيس، ومتحكّمًا في إنشائيّتها العامّة، وموجّهًا لحداثتها في معالمها الكبرى. لذلك آثرنا أن نتّخذ من هذا المتن الشّعريّ الأدونيسيّ مختبرًا تطبيقيًّا من شأنه أن يسمح لنا بتبيّن مظاهر المستعصي على القول، والوقوف على مسالك كتابته، والتنبّه إلى مضايقه.

1. المستعصي على القول في حيِّز المَفْهَمَة

يحتاج الإنسان، من بين ما يحتاج إليه، إلى جملة من الوسائط حتّى يُكسب إقامته على الأرض معنى، ويرتقي بمغامرته في الكون إلى مرتبة المغامرة الأنطولوجيّة الدّالّة، ويجعل من رحلته في الحياة إقبالًا متواصلًا على استكشاف مجاهل ذاته، واختبار مسالك انفتاحه على محيطه الخارجيّ، واستكناه أسرار الأشياء وخباياها. ولا عجب في هذا، ما دام الإنسان هو الكائن الوحيد الّذي ينتج الدّلالات ويحيا بالرّموز والوسائط[3]. بقي أنَّ تفرّده بمثل هذا الامتياز لم يسعفه بالوصول إلى حقائق مطلقة من شأنها أن تضيء طبيعة صلاته بذاته وبالآخر وبالوجود لأسباب متعدّدة: منها ما هو عائد إلى الذّهن البشريّ وكفاياته في التّصوّر والإدراك، ومنها ما هو مرتبط بعوالم الأعيان والوقائع والأحداث، ومنها ما هو غير مفصول عمّا يشوب، عادةً، "علاقات التّوسّط" بين ذلك الذّهن وهذه العوالم من أوجه تعطّل ومظاهر تصدّع وآفات تنازع. وأيًّا كان السّبب الكامن وراء ما تقدَّم ذكره، فإنّنا لا نعدو أن نكون إزاء محنة حقيقيّة يصعب على المرء أن ينجو من أثقالها، خصوصًا إذا كان طموحه منصبًّا على قول الأقاصي، وملامسة ما لا يُحدّ، والإطلالة على المقيم في مجاهل الفراغ والغموض والنّسيان.

على أنّه من الواجب في هذا المقام التّنبيه على معطى ضروريّ مؤدّاه أنّ من يستبدّ به مثل ذلك الطّموح لا يمكنه إلّا أن يكون من طينة الفنّانين والأدباء والفلاسفة والمناطقة ومن إليهم ممّن يجمع بينهم، في الأغلب الأعمّ، شغف العبور من العرضيّ العابر إلى الجوهريّ الدائم، ومن الظّاهر المكشوف إلى الباطن المتخفّي، ومن الجزئيّ الخاصّ إلى الكلّيّ العامّ، ومن الحسّيّ المشتَّت إلى المجرّد المترابط. أمّا النّاس العاديّون، فقلّما يعانون ما يعانيه غيرهم ممّن ينتسبون إلى تلك الطّينة من مشقّات التّدرّب على استضافة "الغريب"، ومصاحبة القصيّ البعيد، ومشارفة التّخوم، ومقاومة كلّ أشكال القبح واللّا-معنى، لأنّهم، بمنتهى البساطة، محكومون بغواية "الحسّ المشترك" وواقعون، لا محالة، تحت وطأة اليوميّ وجاذبيّة النّفعيّ. وحتّى إذا ما أجبرتهم ظروف طارئة وغير محسوبة على التّساؤل أحيانًا، فإنّهم غالبًا ما يتساءلون عمّا يمسّ معيشهم المباشر، ويُخِلّ بمتطلّباتهم الحياتيّة الدّنيا، ويتهدّد تصالحهم مع الوجود وعناصره.

والحقّ أنّنا لا نودّ أن نسترسل في تشقيق هذه النّقطة وتتبّع مختلف تقليباتها. إذ حسبنا، هنا، أن نعي أهمّيّة الوسائط والأشكال الرّمزيّة في حياة البشر، أمس والآن وغدًا. فمن دونها، تظلّ تجربة الوجود تجربة متكتّمة على غوامضها ومستعصيّة على المفهمة والتّعقّل، ويبقى التّطلّع إلى ترويض الموجودات والإمساك بهويّاتها وتفسير محرّكاتها والتّنبّؤ بمآلاتها حلمًا مستحيلًا وممتنعًا. بل إنّ المداومة على طلبها والاحتماء بها لم تُفلح، على قيمة ما أفرزته من خلاصات ونتائج وأجوبة في مختلف العصور، في أن تُحرِّر الإنسان من حيرته إزاء عمى العالم ورعبه وطفرات ظواهره، ومن دهشته أمام جنوح الواقع نفسه في أزمنة الحداثة وما بعدها إلى التّلفّع بالغريب والفزع إلى العجيب والخارق واللّا-معقول. فكان قصارى ما استطاع أن يغنمه منها إفاقته على عجزه عن تفسير كلّ ما يخصّ طبيعته البشريّة ومنزلته في الكون، وعن ترويض المستجدّ الصّادم ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت.

لذلك ظلّ رهان الفنون عامّة والآداب منها على وجه الخصوص معقودًا، في جانب كبير منه، على ملاحقة المنفلت من التّحديد، ومطاردة نداءات الوجود الملغزة، والتقاط ما لا يُرى، والتّجرّؤ على اقتحام عوالم غير منظورة والغوص في أغوار "لا تؤدّيها الصّفة" ولا يستوفيها التّعبير، وتشييد الممكن والمجهول بدل الالتصاق بالمتحقّق والخضوع للمعلوم. ويكفي أن نستذكر الانعطافات الجماليّة الكبرى الّتي عرفها الأدب، خصوصًا في العصر الحديث، حتّى يتبيّن لنا أنّه كان من بين بواعثها الصريحة أو المستترة البحث المضني عن الصّيغ الفنّيّة والأدبيّة الأقدر من غيرها على حيازة المنفلت من أعماق الذّوات، وتهذيب المتوحّش القبيح الرّابض هنا وهناك، والحدس بالآتي من الأقاصي الغامضة والطّالع من المناطق التّخوميّة. وهذا يعني، أوّل ما يعني، أنّ إهمال هذا الجانب المهمّ من حيّز التّفكير في الفنّ وحقل التّنظير للأدب،

بقصد أو بغير قصد، ما هو إلّا نقيصة من نقائص المُتوصَّل إليه من نظريّات في هذا الباب.

صحيح أنّه ما من عمل فنّي إلّا وهو وليد اعتبارات متعدّدة، وسليل سياقات فلسفيّة معيّنة، وترجيع للمهيمن في عصر مّا من شروط ناظمة لمسالك الإنشاء ومتحكّمة في آفاق التّلقّي، إن كثيرًا أو قليلًا. لكنّه لا يلبث، في كلّ لحظة، أن يصطدم بحدوده، ويُطلّ، مرّةً بعد مرّةٍ، على نقصانه. فإذا بطمعه في بلوغ كماله المنشود أقرب إلى اليوتوبيا المشدودة إلى المستحيل الممتنع لا إلى الواقعة القريبة غير المفصولة عن الممكن والمتاح. وربّما هذا ما قصده المفكّر الإيطاليّ جيورجيو أغامبين (1942 - 0000) Giorgio Agamben عندما استخلص من تعريف الفيلسوف الفرنسيّ جيل دولوز (1925 - 1995) Gilles Deleuze عمل الإبداع L'acte de création بكونه "عمل مقاومة" (Un acte de résistance) (4) ما زيّن له أن يرى في كلّ عمل إبداعيّ "جدليّةً مركّبةً" Une dialectique complexe، وحقلَ قُـوًى (Un champ de forces)(5). ثمّ إنّه لم يفوِّت على نفسه مثل هذا المقام من دون أن يستحضر ثنائيّة القدرة على القول والعجز عنه عادًّا إيّاها وجهًا من وجوه هذا الحقل ومظهرًا من مظاهر تلك الجدليّة. وفي هذا وحده ما يشفّ عن تنبّهه إلى إحدى محن الفنّ الأبديّة النّابعة، أساسًا، من بقائه، في مستوى الممارسة وعلى صعيد المنجز، دون "المطلق" المنشود، ومن تعثّر ما ارتضاه له منتجوه، في مختلف الأزمنة، من خيارات إنشائيّة وبدائل جماليّة في اختراق الحجب والقبض على المتعالي وامتلاك العالم في كثافته وامتلائه وإلغازه.

إنّ الأدب، في نظرنا، هو أكثر الفنون تعبيرًا عن هذه المحنة، وأشدّها اصطدامًا بمضايقها، ومواجهةً لأثقالها. فهو لم يكفّ، منذ نشأته الأولى، عن الاستواء شكلًا من أشكال تصريف اللّغة وفق طرائق مخصوصة، ونسقًا من الأنساق العلاميّة المحمولة، بالقوّة أو بالفعل، على انتشال الوجود وظواهره من خواء المعنى وبشاعة القبح ورعب الحقيقة. إلّا أنّ تأمّل تاريخه الطّويل من التّحوّلات والاتّجاهات و"الثّورات" والانتكاسات يُبيِّن لنا أنّه لم يستطع، قديمًا وحديثًا، أن ينجو من عوائقه ويتغلّب على نقصانه. فكلّما بالغ دُعاته من الكتّاب والمنظّرين المندفعين والمبشّرين الحالمين في ارتضاء مثال متسام له، جاءت نصوصه المنجزة مخيّبة لتوقّعاتهم ومفصِحة، وإن بمقادير متفاوتة، عن إخفاقها في الإفلات من "ضيق العبارة" وفي تخطّي "جدار اللّغة". ومثل هذا الأمر يضعنا أمام مفارقة من المفارقات الّتي تفرض نفسها على الأدب في كلّ لحظة تجبره فيها على إظهار قصوره عن قول ما يستعصي على القول، والبرهنة، رغم كلّ ذلك، على استماتته في طلب ذلك المستحيل والتّطلّع إلى احتمالات مشارفته.

بناء على ما تقدّم، يمكننا أن ننحو منحى يانيك ملغوزو Yannick Malgouzou في اعتبار التّجربة الأدبيّة برمّتها تجربة مفارقات (Une expérience des paradoxes) كثيرًا ما تستحيل الكتابة في صلبها إبانةً عن وجود المستعصي على القول، وقبولًا بتعطّل اللّغة، وتسليمًا بالتّعبير فضاءَ إدراكٍ لما يتعذّر التّعبير عنه(6). وإذا رمنا الاختصار في هذا الباب، جاز لنا أن نقول إنّ التّنازع بين إرادة القائل في أن يقول ما يودّ قوله بالصّورة الّتي ينشدها وعلى النّحو الّذي يرتضيه من جهة وانشداد المقول إلى نقصانه وفجواته واستحالاته بمقادير غير ثابتة من جهة مقابلة إن هو إلّا ثابت من ثوابت الأدب، ومحدّد من بين المحدّدات الّتي بوسعها أن تضبط مراتب أدبيّته وتوجّه مسالك قراءته وآفاق تلقّيه. بقي أنّه علينا، هنا، أن نراعي جملة من الاعتبارات وإلّا حكمنا على انشغالنا بهذا السّؤال المحفوف، بمقتضى وضعه وموجب أصله، بهالات من التّعقيد والغموض والتّوعّر بأن يظلّ حبيس سطحيّته وواقعًا في حيّزِ غيرِ المفيدِ. ذلك أنّ التّفكير في المستعصي على القول في المطلق إنّما هو تفكير في موضوع شائك لطالما أحرج الفلاسفة والبلاغيّين واللّسانيّين والمناطقة وعلماء التّحليل النّفسيّ وأعلام تحليل الخطاب والمعنيّين بالأدب إنشاء وتنظيرًا ونقدًا، وغالبًا ما انتهى بهم إلى أطروحات متباينة وتقديرات متضاربة وخلاصات متباعدة.

أمّا التّفكير فيه منزّلًا في الحقل الأدبيّ على وجه التّخصيص، فإنّه لا يخلو، هو الآخر، من عقبات يرجع أكثرها إلى ما عرفه الأدب في أزمنة الحداثة وما بعدها من تحوّلات مذهلة عصفت بما استقرّ في نظريّته وممارسته من سنن وأصول ومقوّمات ومضامين، وهيّأت المشتغلين به، أيًّا كان غرضهم من الاقتراب منه والالتفات إليه، للتّعامل معه، إن على صعيد مفهومه أو على صعيد ما صدقه، على أساس أنّه مختبر للمغامرة واللّعب والنّقض والتّجريب. ولهذا كلّه، بلا شك، أثره العميق في النّزوع بالمستعصي على القول، حدًّا وتشكّلًا ووظيفةً ومنزلةً، منازع هائلة شتّى كان لها أن أذهبت عنه وضوح متصوّره، وأحكمت شدّه، في مقابل ذلك، إلى "فراغ تعريفيّ" (7)(Un vide définitoire).

قد يُفهم ممّا تقدّم أنّنا بصدد تضخيم وعورة المستعصي على القول بما يُزهّد في خيار الإقبال على تدبّره، ويدعو، استتباعًا، إلى تركه وتهيّب التّورّط في شعابه واقتحام مجاهله. والحال أنّ قصارى ما نرمي إليه في هذا الباب هو أن نجعل منه موضوعًا صالحًا للبحث وأحقّ به وأدعى إليه في ضوء مقدّمات ضروريّة لا بدَّ من مراعاتها والأخذ بها ليس أقلّها من الوعي بتركيب المفهوم وبتقلّبه في الأزمنة والأمكنة وحقول المعرفة

ومدارس الأدب. فما المستعصي على القول؟ وما المعاني العامّة الّتي يمكننا أن نُعيِّن بها تحقّقه في النّصوص الأدبيّة على نحو كلّيّ أو نسبيّ؟ أيًّا كانت المسوّغات والموانع، فالرّأي عندنا أنّه لا مناص من ردّ هذا الّذي تساءلنا عن ماهيته وكنهه إلى بعض الخصائص والمحدّدات وإلّا استحال كلامنا عليه كلامًا سائبًا بلا وجهة وبلا أفق. ونحن في هذا نصدر عن مبدأ نظريّ ومنهجيّ الحاصل منه أنّ لوجهة النّظر دورًا جوهريًّا في بناء الموضوع وتسوير حيّزه بوجه من الوجوه[8]. ثمّ إنّنا نعتقد، فضلًا عن ذلك، أنّه ما من مفهوم إلّا وهو وليد إبستيميّات متغيّرة تتغيّر بتغيّرها، بالضّرورة، أساليب التّفكير، ومناويل التّفسير، وطرائق إنتاج المعارف، وأدبيّات طرح الأسئلة والإجابة عنها. ففي هذا ما يغذّي حركيّته المنتجة ويكفل له شروط بقائه وروافد تجدّده. وقد وجد ميشال فوكو (1926 ـ 1984) في إسهامات جورج كانغيلام Georges Canguilhem (1904 - 1995) في فلسفة العلوم وتاريخها ما عزّز اقتناعه بأنّ "تاريخ مفهوم مّا ليس هو، تاريخ صقله التّدريجيّ، ولا معقوليّته المتزايدة باستمرار، ولا نزوعه إلى التّجريد، وإنّما هو تاريخ شتّى حقول تكوّنه وامتداده، وتاريخُ قواعدِ استعمالِه المتتاليةِ والأطرِ النّظريّةِ المتعدّدةِ الّتي تواصل فيها بناؤه واكتمل"[9].

إلّا أنّ هذا كلّه، على أهمّيته وعمق إضاءاته، لا يعدم، بأيّ حال من الأحوال، احتفاظ المفهوم بثوابت يتوقّف أمر تزايدها أو تضاؤلها على وجهة النّظر الّتي يصدر عنها الباحث وعلى الشّروط العامّة الموجّهة لأسئلة الفكر وخيارات إنتاج المعرفة في إبستيميّة معيّنة. إذ مهما بلغت تعريفات المستعصي على القول من التّعدّد والتّباين، فإنّها لا يمكن، في تصوّرنا، أن تخلو من خيط ناظم يشدّ بعضها إلى بعض، وإن من وجوه خفيّة غير ظاهرة في كثير من الأحيان. ولعلّنا أحوج ما نكون في هذا المقام إلى تبيّن ذلك الخيط النّاظم واتّخاذه عتبة أوّليّة يتعيَّن علينا الانطلاق منها والبناء عليها بما ينسجم مع رؤيتنا النّظريّة والمنهجيّة من جانب، وييسّر لنا استكشاف منازل المستعصي على القول من شعر أدونيس والوقوف على صور تسلّله إليه وحلوله فيه من جانب آخر. فممّا جاء في "لسان العرب" لابن منظور في هذا الباب أنّه "يُقال للجماعة إذا خرجت عن طاعة السّلطان: قد استعصت عليه"، و"استعصى عليه الشّيء: اشتدّ كأنّه من العصيان"، "والعاصي: الفصيلُ إذا لم يتّبع أمّه، لأنّه كأنّه يعصيها، وقد عصى أمّه"، و"عصى الطّائرُ يعصي: طار"[10].

يفيدنا هذا المدخل المعجميّ في توجيه الاستعصاء إلى الاقتران بمعان متقاربة ومتشابهة ما هي في محصّل أمرها إلّا تنويع على دلالة مركزيّة، هي دلالة الانفصال والخروج والتّمرّد والانشقاق. فاستعصاء الجماعة على السّلطان (الحاكم) إنّما هو خروج عنه وتمرّد عليه. ولا يمكن لشيء أن يستعصي على شخص مّا ما لم ينفلت منه ويخرج عن دائرة فهمه وأفق إدراكه. ويُضحي الفصيل، وهو صغير النّاقة، عاصيًا/ مستعصيًا في اللّحظة الّتي يُفطم فيها وينفصل، معها، عن أمّه ويكفّ عن اتّباعها والتّعلّق بها. ويتحدّد عصيان الطّائر بطيرانه، أي بلحظة انفصاله عن الأرض وتحليقه في أعالي السّماء. فهناك، إذن، تعطّل لرابط بين طرفين، وتأزّم لصلة مّا تصرّمت أسسها وتقطّعت وشائجها، وصار من الصّعب رأب تصدّعها. وكان هذا أحد المسوّغات الّتي حدت بنا إلى ترجيح "المستعصي على القول" ليكون مقابلًا عربيًّا للّفظة الفرنسيّة: "L'indicible"، واللّفظة الإنكليزيّة: "The unspeakable" بدلًا من "ما لا يمكن النّطق به" و"اللّامنطوق" و"ما لا يمكن قوله"، و"ما لا ينقال" وما إلى ذلك من المقابلات الّتي وجدناها فاشية عند العرب المعاصرين سواء أكانوا مترجمين أم باحثين في حقول الفلسفة واللّسانيّات والأدب وما إليها. فأن يستعصي أمر مّا على أن يُقال بالكلمات، فهذا يعني، من بين ما يعنيه، أنّه ثَـقُـلَ واشتدّ واتّسع وشرد ودقّ وغار وأشكل واستبهم إلى درجة يستحيل معها مجرّدُ العزم على قوله أشبهَ بالمخاطرة غير المأمونة. وما هذا إلّا تحّد على القائل، أيًّا كانت طريقة تصريفه لقوله والغاية المرجوّة منه، أن يواجهه مواجهةً من شأنها أن تضع على محكّ الاختبار قدرتَه على ترويض اللّغة والتّحكّم في نظم اشتغالها واقتيادها إلى التّعبير عمّا يروم إظهاره ومكاشفة أسراره والإيحاء بتعدّده وكثافته.

بيد أنّ التّوفّق في رفع هذا التّحدّي وتذليله يبقى إمكانًا يصعب تنزيله في واقع الممارسة اللّغويّة لاعتبارات كثيرة ليس أقلّها من أنّ المستعصي على القول لا يمكنه أن يجيء على هذه الصّفة ما لم يتخطّ حدود اللّغة ويضرب بعيدًا عن مواضعاتها في التّسمية والتّمثيل والإحالة. إنّنا، بهذا المعنى، لا نعدو كوننا إزاء مفارقة بين ما نريد أن نقوله من جهة وما نقف دون بلوغه من جهة مقابلة. ولا غرابة في هذا ما دام المستعصي على القول عائدًا، في محدّد من المحدّدات الأكثر ارتباطًا به والأشدّ التصاقًا بالأذهان، إلى ما لا ينقال، أي إلى ما لا نستطيع أن نقوله باللّغة وترجمته بعلاماتها. ومن شأن تعريفه على هذا النّحو أن يمحّض مفهومه للدّلالة على "تعطّل سلطة اللّغة الإحاليّة"، و"استحالة الخطاب" و"النّقص في التّعبير"[11]. وهو ما يدعونا، ضرورة، إلى أن نضع في الحسبان، ونحن نتدبّر إشكاليّة هذا البحث ونسعى إلى إضاءة بعض أبعادها، أنّ المستعصي على القول يتحدّد، أوّل ما يتحدّد، باعتباره "عُطْلًا" مّا يصيب علاقة المتكلّم باللّغة أوّلًا وعلاقته

بذاته وبالعالم وأشيائه ثانيًا. إنّه، من حيث المبدأ وبموجب التّعريف، لا يخرج، مثلما تذهب إلى هذا إحدى الباحثات، عمّا يتملّص من اللّغة ويتفلّت من سطوتها وفق مسارات تغدو، بمقتضاها، عاجزة عن الإمساك به ومفتقرة إلى "القوّة" الّتي تمكّنها من تملّكه والإحاطة به وبسط سيطرتها عليه[12].

رغم وعينا بنسبيّة هذا التّعريف وافتقاره، شأنه شأن كلّ تعريف، إلى الشّروط الضّروريّة والكافية الّتي تجعل حدّه لموضوعه حدًّا جامعًا مانعًا، فإنّنا نراه مفيدًا من وجوه متعدّدة يعنينا منها في ما نحن فيه هنا الوجهُ الّذي يُظهر لنا المستعصي على القول في هيئة شاهد على مضايق اللّغة و"استحالاتها" ما دام كلّ أثره منصبًّا على سلبها كفايتها في أن تقول ما يُراد لها أن تقوله، وتعطيل طموح مستعملها في أن يُعبِّر بها عن ذاته في بواطنها وأسرارها ومختلف "تجاربها التّخوميّة" مع العالم الخارجيّ والآخرين على أنحاء لم تألفها من قبل. وربّما في هذا ما يرقى به إلى مرتبة المصطلح المؤهّل للتعبير عن "عجز القول" أو بالأحرى عن "العجز في القول" (L'impuissance de dire)[13]. ذلك أنّ أوّل ما يتحصّل لنا منه لا يتعدّى، في كثير من الأحيان، تعيين أزمة ما تغدو، بسببها، اللّغة مدفوعة إلى الاصطدام بحدودها، والإفاقة على شيء من معضلاتها، والتّنكّر لإرادات مستعمليها ومقاصدهم.

إلّا أنّ التّنبّه إلى هذا كلّه لا يمكن أن يتحقّق إلّا انطلاقًا من القول واستنادًا إليه، لأنّ ما لا ينقال يظلّ مفهومًا غارقًا في التّجريد والتّعالي ما لم نلمس له في الكلام علامات تدلّ عليه وقرائن تشي به وتومئ إليه. وهذا ما قطع به مالغوزو Malgouzou عندما قال: "إن المستعصي على القول لا يوجد في ذاته. إنّه لا يوجد إلّا بالرّجوع إلى قدرة ما على القول وعلى التّعبير"[14]. وهو، بهذا الاعتبار، يدعونا إلى التّعامل مع المنجز من الأقوال بوصفه حيّزًا مركّبًا، في صلبه نقف على المنقال (Le dicible) وغير المنقال، وعلى المعبَّر عنه وغير المعبَّر عنه، وعلى المقول وغير المقول، وعلى الحاضر والغائب، وعلى المنكشف والمحتجب. والثّابت عندنا أنّ لهذه الدّعوة من المحرّكات والمبرّرات ما يجعلها ذات وجاهة مشروعة تؤكّدها طبيعة الممارسات القوليّة نفسها. إذ "كلّما شرع المتكلّم في الكلام انقسم قوله في كلّ مرّة إلى كلام قد قيل نسمّيه "ما ينقال"، وكلام "لم يُقلْ بعدُ" هو "ما لا ينقال" أو جنس منه"[15]. وأيًّا كانت هيئة هذا الّذي يستعصي قوله أو الطرائق المتوخّاة في التّدرّب على مصاحبته وتعقّله ومحاتلته وترويضه ومغالبته، فإنّه لا يمكن أن يتحدّد، متى نزّلناه في حقل الأدب، إلّا على أساس أنّه "بناء" (Une construction) و"تشكيل خطابيّ" (Une formation discursive)[16]، وأنّه، في مستوى من مستوياته، نهج كتابة ومسلك أداء وأسلوب إجراء. ولعلّه لا يعنينا إلّا من هذه الجهة بالذّات، أي من جهة ما ينبثّ منه في نسيج الكلام ويتسلّل إلى تضاعيفه ويعلق بالمنجز منه والممكن.

قد يبدو في ما تقدّم ذكره ما يوحي بتناقضه أو بما يحول دون الاهتداء إلى انسجامه الخفيّ على الأقلّ. لكن يكفي أن نصله بالفنّ عامّة وأن نفكّر فيه من داخل منطق الفنّ الأدبيّ الحديث خاصّة حتّى يتبيّن لنا أنّه لا افتئات في اتّخاذ المستعصي على القول وعلى التّعبير والتّمثيل موضوعَ بحثٍ ومحطَّ تنظيرٍ. أليس من رهانات الأدب، كما نظّر له كثيرون من أصوات الحداثة الغربيّة والعربيّة، تأديب المستعصي على القول (La littérarisation de l'indicible) و"تلفيظه"؟ بل أليس من الوظائف الجوهريّة المنوطة بالشّعر والشّعراء، بدءًا من اللّحظة الرّومنطيقيّة وما تلاها من حركات أدبيّة طليعيّة، جعل الاستعصاء على القول (L'indicibilité) باعثًا على فعل الكتابة نفسه، وأُسًّا يقوم عليه ويستلهم منه منابع خصوبته وأسباب منشئه ومحرّكات تجدّده؟

لعلّ أكثر ما شغل روّاد الحداثة الغربيّة في الفنّ عامّة والشّعر خاصّة، إن على صعيد التّنظير أو على صعيد الممارسة، هو التّفكير في المستعصي على القول من حيث مفهومه وحدوده وأشكاله ومضامينه أوّلًا ومن حيث طرائق استدعائه وآليّات وَسْمه وحيل التّدرّب على كتابته ثانيًا. وممّا هو في حكم المجمع عليه بين الباحثين في هذا الباب هو الاعتراف للرّومنطيقيّين الألمان عامّة ولرومنطيقيّي إيينا (Les romantiques d'Iéna)[17] منهم على وجه التّخصيص بفضل الرّيادة في الإفاقة على المستعصي على القول والإمعان في الإعلاء من عبقريّة الفنّ في ترويضه ومغالبته وتخطّي مضايقه واستحداث المعادلات الجماليّة والموضوعيّة المُهيَّأة أكثر من غيرها للتّعبير عنه والإيحاء به[18].

يتعيّن علينا في هذا الصّدد أن نضع في الاعتبار نقطة مهمّة مؤدّاها أنّ انشغال أولئك الرّومنطيقيّين المؤسِّسين الأوائل بهذا السّؤال لم يكن منفصلًا عن التّأسيس لنظريّة جماليّة عامّة في الفنّ والأدب أُريد لها أن تقطع مع ما كان مكرّسًا في الأفق الغربيّ من أدبيّات ليس أقلّها ممّا اختزله نوفاليس Novalis في "طغيان مبدأ المحاكاة" (La tyrannie du principe d'imitation)[19]. إذ إنّ الإقدام على التّفكير في العمل الفنّي بمعزل عن هذا المبدأ الّذي كانت له سطوته على التّنظير الأدبيّ ومساراته، منذ أرسطو حتّى أواخر القرن الثّامن عشر، كان لحظة حاسمة لم تقتصر على تحريره من قيود العالم المادّي الموضوعيّ الرّابض خارجه والارتداد به إلى الذّات في مختلف أحوالها وأسرارها وانفعالاتها، بقدر ما جاوزتها إلى استنهاض مختلف ممكناته وإطلاق العنان

لقواه التّعبيريّة والتّرميزيّة الكامنة. ويعنينا من هذه اللّحظة في السّياق الّذي نحن فيه هنا إسهامها البارز في تهيئة أرضيّة نظريّة ومنهجيّة حيّة، في كنفها بدأ يتعاظم الإحساس بسلطة الشّعر في خلق "الجميل"، والنّفاذ إلى المخبوء غير المرئيّ، واقتحام حدود المستحيل المتأبّي، عادةً، على القول. وتنبع هذه السّلطة من داخله، وتستمدّ فاعليّتها من "لزومه" وبداية اكتشافه لحقيقته المستقلّة بذاتها وغايتها. يقول الفيلسوف الفرنسيّ جون أندري والـ - Jean André Wahl (1888 (1974: "بدأ الشّعر يعي ذاته وجوهره شيئًا فشيئًا. ويمكننا القول إنّ الحركة الرّومنطيقيّة هي اللّحظة الّتي عزّز فيها وعيه بذاته بطريقة عامّة للغاية لأوّل مرّة. ذلك أنّ الكلاسيكيّة هي الشّعر الّذي لم يعِ ذاته. أمّا الشّعر الرّومنطيقيّ فإنّه الشّعر الّذي عرف نفسه بوصفه شعرًا"[20].

ليس يخفى أنّ في هذا الّذي ذكره جون أندري وال إعلاء من الدّور الّذي لعبه الرّومنطيقيّون، في مستوى التّنظير أساسًا وفي مستوى الممارسة بدرجة أقلّ، في انتحاء منحى غير مسبوق في تمثّل الشّعر على أساس أنّه مغامرة إبداعيّة متفرّدة تتّخذ لها من الرّؤيا والحدس و"النّبوءة" والخيال المنتج معابرَ إلى طلب المطلق، وكتابة غير المنظور، ومصاحبة الأقاصي وقول ما هو عصيّ على القول. ولو لم يجد فيه اللّاحقون من الرّمزيّين والتّكعيبيّين والدّادائيّين والسّرياليّين ومن إليهم ضالّتهم أو أشياء منها، لما انطلقوا منه وسعوا جاهدين إلى تعميقه وإغناء مقولاته وتوسيع آفاقه. والفضل الأكبر في كلّ هذا يُحسب للرّومنطيقيّين الألمان في المقام الأوّل. فهم الّذين فتحوا الطّريق، كما يقول جون ـ كلود بانسون Jean-Claude Pinson، أمام الشّعر حتّى يعي ذاته ويثبت عبقريّته في كشف المطلق والإطلالة على المستحيل[21]. والحقّ أنّنا لا نريد أن نسترسل في تحليل أفكار هؤلاء الرّومنطيقيّين وتتبّع مختلف امتداداتها عند لاحقيهم. إذ حسبنا في هذا المقام أن نشدّد على ما لمسناه فيها من اعتداد بتفرّد الفنّ الحقيقيّ بالقدرة على التّعبير عن المستعصي على القول، وعلى القفز خارج حدود اللّغة قفزًا من أغراضه جَعْلُ ما لا ينقال منقالًا وما لا يُرى مرئيًّا. وهو الأمر الّذي كان له بالغ الأثر في الدّفع بسؤال المستعصي على القول إلى واجهة الدّرس الأدبيّ الحديث حتّى غدا أحد المحدّدات الكبرى الّتي تُقاس بها حداثة الشّعر، وتُبنى عليها مساراتها الجماليّة والدّلاليّة. ولمّا كان أدونيس من أكثر الشّعراء العرب المعاصرين مواكبة لتحوّلات الشّعريّة الغربيّة وأشدّهم تفاعلًا مع محاصيلها النّظريّة والإبداعيّة، فإنّه لم يكن محض مصادفة أن نجد في أشعاره نزوعًا إلى قول المستعصي على القول، وتنويعًا في محاولات كتابته ومسالك التقاطه على نحو استحال معه رافدًا إنشائيًّا، ورهانًا فنيًّا، وباعثًا على تدريب العلامات اللّغويّة وغير اللّغويّة على مجاوزة ضفافها ومغالبة قيودها. ونحسب أنّه ما كان لهذا كلّه أن يتيسَّر لأدونيس شعريًّا لولا وعيه النّظريّ والفلسفيّ بوظيفة الشّعر الجماليّة ووظيفته الأنطولوجيّة.

2. المستعصي على القول في حيِّز الميتاشعر

لعلّ أول ما يلفت نظر قارئ أشعار أدونيس هو ميلها المطّرد إلى اتّخاذ الشّعر نفسه موضوعًا لها تصفه وتخوض في معضلاته وتطلّ على شعابه ولا تتواني عن الارتداد إليه. فغدت، وفق هذا الاعتبار، منصرفة إلى الدّوران على نفسها بدل الدّوران على العالم وأسراره انصرافًا هيّأها لتكون الأداة والموضوع في الوقت نفسه على نحو جعل من الشّعريّ (Le poétique) فيها منفتحًا على الميتاشعريّ (Le métapoétique)، وقلّما ينفكّ منه ويتأسّس في انقطاع تامّ عنه وغفلة مطلقة منه. غير أنّ الميتاشعريّ ليس يعنينا في هذا المقام من حيث هو وظيفة طارئة على الشّعر من شأنها أن تزاحم وظيفته الشّعريّة بصفتها وظيفته المنشودة الأولى أو أن تضع وجوب هيمنتها عليه، كما يقطع بذلك رومان جاكبسون Roman Jakobson ولفيف من أعلام الشّعريّة الحديثة[22]، موضعَ تساؤلٍ، بقدر ما يعنينا من جهة تمحّضه للدّوران على سؤال المستعصي على القول ومسالك كتابته وحيل تذليله ولطائف ترويضه. ولنا أن نتساءل هنا عن دواعي لجوء أدونيس إلى إدارة الشّعر نفسه على هذا السّؤال. وتتزايد الحاجة إلى هذا التّساؤل إذا عرفنا أنّ هذا الشّاعر ليس شاعرًا صاحب تجربة شعريّة ممتدّة فحسب، بل هو، فضلًا عن كلّ ذلك، ناقد منظِّر من الطّراز الأوّل ودارس ذو مشروع تنظيريّ ونقديّ غنيّ لم يكفّ عن تعهّده بالتّعميق والتّطوير والمراجعة والتّحيين والاستئناف. فالأحرى به، بمقتضى ما تقدّم ذكره على الأقلّ، أن يتدبّر المستعصي على القول في مختلف تقلّباته ومناحيه وقضاياه في كتاباته التّنظيريّة ودراساته النّقديّة بدل إحلاله محالَّ مخصوصةً من قصائده وتنزيله منازل شتّى في تضاعيفها ما دام شاعرًا وناقدًا منظِّرًا لا تقلّ بياناته النّظريّة ورؤاه النّقديّة قيمة وأهمّيّة عن ممارسته الشّعريّة. إذ ما الّذي حدا به، في أحايين غير قليلة، إلى العدول عن مباشرة ما لا ينقال مباشرةً تنظيريّةً أو نقديّةً إلى مباشرته مباشرةً شعريّةً وجعله موضوعَ قولٍ شعريٍّ؟ ما الدّلالات الّتي يمكننا استخلاصها من نزوعه بالميتاشعريّ، كلّما وجد طريقه إلى أشعاره، منزعًا غالبًا ما ينفتح، بموجبه، على المستعصي على القول ويكاد أن ينحصر فيه؟

عديدة هي التّساؤلات الّتي يمكن أن تتناسل من هذا الإشكال وتتفرّع منه، وكثيرة هي قصائد أدونيس الّتي يمكننا أن نلاحظ فيها نزوعًا بالشّعر إلى الميتاشعر (La métapoésie)،

وبالوظيفة الشّعريّة (La fonction poétique) إلى الوظيفة الميتاشعريّة (La fonction métapoétique). ولمّا كان ذلك كذلك، فإنّه ليس لنا إلّا أن نعوِّل في استجلاء أبعاد المستعصي على القول، وقد استحال مظهرًا من مظاهر الميتاشعريّ، على شواهد شعريّة مصطفاة من المتن الشّعريّ الأدونيسيّ نراهن على تمثيليّتها له من جهة انفتاحه على ما لا ينقال، وميله إلى تعيينه، وجريانه إلى تدريب اللّغة على إظهاره وترويضه وتهيئته على نحو يغدو، بمقتضاه، قابلًا لأن يُقال على صورة من الصّور. والحقّ أنّ أكثر ما يسترعي انتباهنا في هذا المتن، على ترامي ضفافه واتّساع دوائره وتعقّد مسالك إنشائه وتدافع تحوّلاته الفنّيّة والدّلاليّة، هو استحالته في نماذج غير قليلة منه شعرًا على الشّعر تبدو معه الذّات، سواء أكانت ذاتًا مرجعيّة تعود إلى أدونيس نفسه أم ذاتًا غنائيّة تخييليّة هي صنيعة ورق ومخلوق كلام، ذاتًا تقف من اللّغة مواقف متقلّبة تشفّ، في معظمها، عن تردّد بين تضخّم الأمل في قول ما يستعصي قوله من ناحية واليأس منه والاصطدام بحدوده من ناحية مقابلة، وتوحي، في جانب كبير منها، بأزمة مّا تعثر لها على قوادحها ومولّداتها في أوضاع غالبًا ما يبلغ فيها التّنازع بين إرادة القائل مشارفة المطلق اللّانهائيّ وإضاءة السّريّ السّاكن في البواطن واللّائذ بالتّخوم وكشف المحتجب غير المرئيّ والنّفاذ إلى حقيقة الوجود غير المنظور من جهة وإرادة آلته اللّغويّة البقاء أسيرة لقيودها ومفتقرة إلى جسارة الانفلات من معهود جريانها ومعتاد تصريفها من جهة أخرى أوجَ مراتبِه وأقصى درجاته. وهذا ما يجد له صيغته المثلى في مفتتح قصيدة "الوقت":

حاضنًا سنبلةَ الوقت ورأسي برجُ نارٍ:
ما الدّمُ الضّاربُ في الرّملِ، وما هذا الأفولُ؟
قُلْ لنا، يا لهبَ الحاضرِ، ماذا سنقولُ؟

مِزَقُ التّاريخِ في حنجرتي
وعلى وجهيَ أماراتُ الضّحيّه
ما أمَرَّ اللّغةَ الآن وما أضيقَ بابَ الأبجديَّهْ[23].

الاكتفاء بقراءة هذا الشّاهد الشّعريّ الّذي افتتح به أدونيس مطوّلته الشّعريّة الموسومة بـ"الوقت" وسما مفتوحًا على دلالات متعدّدة ليس أقلّها من اتّخاذ الزّمان في مختلف مشيراته وأطوارها وأبعاده ومعضلاته موضوعَ كتابةٍ ومنعقدَ تأمّلٍ ومغامرةَ سؤالٍ في ذاته وبمعزل عما هو ناشئ بينه وبين ما تلاه من مقاطع وحركات من أشكال تجاوب وصيغ تراسل ومظاهر تفاعل يبقى خيارًا منهجيًّا مشروعًا يلتقي بمسوّغاته أو بشيء منها على الأقلّ في وجهة هذا البحث وطبيعة إشكاليّته وخصوصيّة غاياته رغم وعينا المبدئيّ بحدوده وتسليمنا بنقصانه. فالمقام الّذي نحن منه بسبيل هنا ليس مقام سبر لأغوار الشّعر الأدونيسيّ ولا مقام تتبّع تفصيليّ لما عرفه من تحوّلات وانعطافات، بقدر ما هو مقام تركيز على تفحّص جزئيّة محدّدة ودقيقة تفحّصًا الغرض منه الوقوف على المستعصي على القول لحظة تنزّله في الشّعر تجلّيًا من تجلّيات الميتاشعريّ واستوائه، فضلًا عن ذلك، شاغلًا لا يكفّ عن استثارة الذّات المتلفّظة وخلق جدل مّا معها. صحيح أنّ اصطدام هذه الذّات به غالبًا ما يرد عَرَضًا في مواضع معيّنة تقود إليه، في كثير من الأحيان، بنيات فنّيّة مركّبة وسيرورات دلاليّة معقّدة. لكنّه يبقى، على عرضيّته، مفيدًا في إضاءة جانب من عوالم أدونيس الشّعريّة، والمساعدة على تبيّن منازل ما لا ينقال منها، والتّنبّه إلى مسالك تطويعها له.

يضعنا المقطع الشّعريّ الّذي جعله أدونيس، متعمّدًا، فاتحة قصيدته أمام ذات متلفّظة إشكاليّة يصعب الاهتداء إلى مرجعها والقطع بصبغتها (ذات غنائيّة، ذات ملحميّة، ذات قناع...). فمن ملامحها أنّها ذات مفردة، إلّا أنّها منفتحة على الجماعيّ غير متردّدة في الانصهار فيه والنّطق باسمه ونيابةً عنه (قُلْ لَنَا.../ ماذا سنقول؟). وهي، إلى ذلك، محطّ تجاذب بين أسلوبين في الأداء: يتمثّل أوّلهما في الأسلوب الخبريّ أسلوبًا دعت إليه الحاجة إلى المبادرة بتقرير حالها في وضع الابتداء (حاضنًا سنبلة الوقت ورأسي برج نار)، وإجمال ما يتعيّن إجماله من مُعيّنات تسمح بتقييد صورتها على نحو يمحّضها لتكون دالّة على ما تعانيه في حاضرها من انكسار ما هو في الواقع إلّا امتداد لخيبات الماضي وإخفاقات الأسلاف (مزق التّاريخ في حنجرتي/ وعلى وجهي أمارات الضحيّة). أمّا الأسلوب الثّاني فهو أسلوب الإنشاء المتفرّع، هو الآخر، إلى إنشاء طلبيّ وإنشاء غير طلبيّ. إذ ليس الاستفهام والأمر والنّداء إلّا أعمالًا إنشائيّة طلبيّة جاءت متضافرة في إظهار منشئها في هيئة ذات قلقة يستبدّ بها الفزع من "لهب الحاضر" وقبح الماضي على حدّ سواء، ويسكنها العجز عن تفسير "الوجود" الّذي يكتنفها وتبرير ما يَرِين عليه من صور "الموت" والقتل والهشاشة والهوان.

ومن الواضح أنّه ما كان لهذه الذّات أن تلوذ بالإنشاء الطّلبيّ في مفتتح القصيدة لو تيسّر لها التّصالح مع اختلال العالم الّذي تقيم فيه بنحو من الأنحاء، وتسنّى لها، بمقتضى ذلك، النّفاذ إلى ما يتوارى خلف المدركات الحسّيّة من أسرار وخبايا وأكوان غير مرئيّة. لذلك لم يكن استفهامها عن ماهية كلٍّ من "الدّم الضّارب في الرّمل" و"الأفول" استفهامًا يستهدف طلب معرفة بما هو ظاهر ومباشر ومكشوف، بقدر ما كان إيحاء بحيرتها إزاء ما لم تستطع استيعابه وتقبّله وتفسيره وتمثّل أبعاده. ورغم مجيء الاستفهام، هنا، استفهامَ تصوّرٍ بدا

لنا منصبًّا، رأسًا، على عنصرين محدّدين، فإنّنا نقدّر أنّه من ضيق النّظر حصره فيهما والقعود عن الميل به إلى اعتبار يغدو، بمقتضاه، دائرًا على ما هو أوسع منهما ممّا يمكننا إدراجه في خانة "الفاجعة" الصّادمة والمرعبة الّتي تستعصي على التّمثيل وتتأبّى على الوصف وتتملّص من ربقة أيّ توجّه طامع في تخصيصها أو تعيينها[24]. وما هذا إلّا آية من آيات المستعصي على القول، ووجه من وجوهه. وأيًّا كانت هويّة هذا "الأنا" المتعهّد بالقول والمحمول في فلكه على أدوار مختلفة وهيئات متقلّبة، فإنّ ما يعنينا منها هو جانبها الدّالّ على ارتباطها بذات هَالَها حاضرُها وأرعبها ما يسوده من مظاهر العطب والموت والانكسار إلى الحدّ الّذي تعطّلت معه قدرتها على تمثّل تجربة مركّبة ذات وقع صادم وعنيف.

إنّ هذا الجانب المشار إليه هو الّذي يضعنا في صلب ما لا ينقال، أي في صلب ما لا تستطيع العبارة أن تؤدّيه أو تحيط به، لأنّه، ببساطة، هو الّذي حمل القول على وسم ما لا يمكن إدراكه وقضى، استتباعًا، ببقائه في عتبة لم تسمح له بتعيينه أو تملّكه والسّيطرة عليه[25]. وهو، إلى ذلك، يقف دليلًا على أنّه من بين ما يتحدّد به المستعصي على القول أنّه حاصلُ صلةٍ متأزّمةٍ بين تجربة فجائعيّة مرعبة فارقت "المعقول" وتخطّت منطق انتظام الأشياء في الكون ولامست الحدود القصوى من جهة، وذات لم تسعفها موسوعتها اللّغويّة والإدراكيّة بأن تلتقطها في كثافتها وأن تصف "حدّيتها" وتمسك بلا معقولها من جهة أخرى. على أنّه من المفيد في هذا المستوى من التّحليل استحضار معطى ضروريّ المتحصّل منه أنّ قدر اللّغة، ولا سيّما الشّعريّة منها، أن تُفْرِدَ المستعصي على القول بنافذة من نوافذها، وأن تتضمّن شيئًا من بصماته وتنطوي على مقدار مّا من آثاره[26]. إذ يكفي أن نتأمّل الشّاهد الشّعريّ الأدونيسيّ الّذي انطلقنا منه حتّى نجد فيه من البصمات والآثار ما يُفصح عن تسلّل ما لا ينقال إليه واستوائه "تشكيلًا خِطابيًّا" (Une formation discursive) لا ينفصل عن بقيّة مكوّناته ولا يمكن أن يُفهم بمعزل عن سائر وحداته وبنياته. ذلك أنّ هذه الذّات الّتي تنفتح عليها قصيدة "الوقت" وفق تمشّ تلفّظي يدنو بها من وضع غدت، بمقتضاه، ذاتًا قائلة ومقولة معًا، وواصفة وموصوفة في آن واحد، إنّما هي ذات غير متصالحة مع "زمنها" وغير قادرة على استيعاب "مقابحه" وتفسير حوادثه. فلو لم تكن كذلك، لما استجارت بمنادًى مُتخيّل تطلب منه أجوبة عمّا وقفت عاجزة عن التّفاعل معه والاهتداء إلى أسراره والتّخفّف من غرائبيّته.

والحقّ أنّنا لسنا معنيّين هنا، بالتّبسّط في إظهار المنابع الاستعاريّة والأسطوريّة الّتي تثوي خلف اتّخاذ "لهب الحاضر" مخاطَبًا لم تجد الذات، وقد تحوّلت عن الفرديّ (أنا) إلى الجماعيّ (نحن)، مهربًا من تنزيله ثلاث منازل (المأمور (قُلْ لنا)، المنادَى (يا لهبَ الحاضرِ)، المستفهَم (ماذا سنقول؟)) قدرَ عنايتِنا باستنطاق ما هو متمحّض منها للدّلالة على اصطدام إرادة قول (Un vouloir dire) بعوائق كان لها أن أيقظتها على حدودها وحالت دون بلوغها درجات تحقّقها المنشودة[27]. والّذي نذهب إليه في هذا الخصوص هو أنّ وظيفة هذه الأعمال الإنشائيّة الطّلبيّة الثّلاثة المتمثّلة في النداء والأمر والاستفهام لا تنحصر في الجريان إلى تعيين صلة الذّات المنشئة لها بمخاطب تخييليّ ذي قاع ضارب في بنى استعاريّة وأسطوريّة ودينيّة متعدّدة (اقتران اللّهب/ النّار بدلالات مختلفة ومتناقضة يصعب حصرها)، بل تتعدّاها إلى الإيحاء بتعطّل مَلَكَةٍ من أنشأها في قول زمنه، والتّعايش معه، و"تلفيظ" ما حلّ به من "محن" وأهوال وألغاز؛ وهذا هو الّذي يضعنا في قلب المستعصي على القول، أي في قلب "عالم" أَشْكَلَ على الذّات، وجعل من مواجهتها له مواجهة صادمة ومؤلمة (Une rencontre traumatique et choquante)، ولم تجد في ذخيرتها اللّغويّة وزادها التّصوّري ما يسمح لها باستيعابه ومغالبته وامتلاكه بالتّسمية.

بناء على كلّ ما تقدّم، يتعيّن علينا، إذن، أن نأخذ في الحسبان أنّ باعث الذّات المنشئة للإنشاء الطّلبيّ على عقد صلة تخاطبيّة مع "لهب الحاضر" إنّما هو إفاقتها على رعب لحظتها وعجزها عن تقبّل ما فيها والتّفاعل معه وصفًا وتمثّلًا وتمثيلًا وتأويلًا. وما هذه الإفاقة في واقع الأمر إلّا إفاقة على حدود إدراكها لما هو "كارثيّ" مفارق للمتوقّع وخارق للمعقول وشارد عن منطق انتظام الأشياء والوقائع في الكون. لذلك يكفي أن نسلّم، مع لودفيغ فيتغنشتاين Ludwig Wittgenstein (1889 - 1951)، بأنّ حدود ما ندركه من العالم هو تلك الحدود الّتي تتوافق مع حدود لغتنا بالضّرورة[28] حتّى نتنبّه إلى أنّ ما أبانت عنه الذات في مفتتح قصيدة "الوقت" من دهشة إزاء لحظتها وتعثّر في تقبّل ما فاضت به من "كوارث" صادمة و"فواجع" غير قابلة للوصف يبقى، في جزء كبير منه، إبانةً عن عُطل أصاب اللّغة وكشفًا عن حدودها ومضايقها. ونجد في ما انتهى به الشّاهد الشّعريّ الّذي نحن منه بسبيل ما يؤكّد مثل هذا الأمر. إذ إنّ اللّجوء إلى عمل التّعجّب بصفته عملًا إنشائيًّا غير طلبيّ موجَّهًا، في أساسه، إلى التّعبير عن انفعال منشئه بالإيجاب أو بالسّلب أمام شيء خارج عن "العادة" ومدفوع إلى حدّه الأقصى إن هو إلاّ لجوء إلى الميتالغويّ ما دام القول فيه منصبًّا على إظهار ضيق الذّات المتعجِّبة باللّغة. فالشّعر، هنا، جار إلى تسليط اللّغة من حيث هي أداة على اللّغة من حيث هي موضوع جريانًا الغرض الرّئيس منه لفت الانتباه إلى بقائها

دون مستوى الواقعة كلّها الّتي استفاقت الذّات عليها ولم تجد في مخزونها اللّغويّ والتّصوّريّ ما يسمح لها باستيعابها والإمساك بخيوطها الخفيّة وتأوّل غوامضها والتقاطها في كثافتها وتركيبها وتشابك أبعادها.

وأيًّا كان الحال، فإنّ جنوح الأنا إلى الاحتماء بعمل التّعجّب في نهاية الشّاهد الشعريّ الّذي أوردناه ما هو إلّا قرينة دالّة على اصطدامه بحقيقة مروّعة ذات وجهين: يفصح أوّلهما عن "لحظة" مشحونة بالكارثيّ والفاجع والفظيع، وينحصر ثانيهما في الإفاقة على "فقر اللّغة" (La pauvreté du langage) عندما تجد نفسها مدفوعة إلى مواجهة تجارب مستعصية على القول وأحداث متملّصة من الوصف، ومحمولة على اختبار أقصى ما تنطوي عليه من إمكانات في التّسمية والإحالة والتّعبير والدّلالة. وعلى هذا الأساس، يكفّ عبور هذه الذات المنشئة من الإنشاء الطّلبيّ المنجز، كما مرّ بنا، بالنّداء والأمر والاستفهام إلى الإنشاء غير الطّلبيّ المتحقّق بالتّعجّب عن كونه مجرّد إجراء أسلوبيّ شكليّ منزوع التّبرير وخال من أيّ محمول دلاليّ ليستوي، على خلاف ذلك، اختيارًا مقصودًا دعت إليه اعتبارات متعدّدة يصبّ أكثرها في خانة الاعتراف الصّريح أو الضّمنيّ بقصور الكلمات عن كتابة "لحظة" مركّبة ذات أهوال وصدمات، وعن مطاوعة مستخدِمها في "محاصرتها" وقول ما يودّ قوله عنها أو ما يزعم أنّه متطابق مع أسرارها ومنابع تكوّنها.

وإذا كان إقدام الذّات المنشئة على تنزيل "لهب الحاضر" منزلة المخاطَب "فرضًا" اضطرّت إليه تعويضًا عن عجزها الذّاتيّ عن تقبّل "فظاعة" لحظتها والتّعايش معها وصفًا وتفسيرًا وتمثيلًا وتأويلًا، فإنّ تعجيلها بتركه دون إنطاقه بما كان يمكن أن ينطق به من أجوبة متخيَّلة عن أسئلتها أو منحه حيّزًا من الكلام من شأنه، إن كلّيًا أو جزئيًا، أن يستجلي مآتي صدمتها ويدفع عنها حيرتها أو شيئًا منها على الأقلّ ما هو، في ما نقدّر، إلّا إيذان ببلوغها مبلغ اليأس المطلق من قدرة لغتها على قول ما لا ينقال والتّعبير عمّا يضيق به التّعبير ووصف ما يفيض عن الوصف. وبهذا، لم يكن التّحوّل السّريع إلى التّعجّب إلّا تتويجًا لمحنة الاصطدام بلحظة فاجعة ومروّعة لم تجد الذّات سبيلًا إلى فهمها وترويضها والتّخفيف من فائض تركيبها ووقع غرابتها وثقل فجائعيّتها. بل إنّنا نحسب أنّه لو لم تبلغ مثل تلك المحنة أقصى درجات بشاعتها ومنتهى مراتب قبحها لما جنح الأنا إلى الميتالغويّ ليسلّط به اللّغة على اللّغة على نحو أفصح عن سطوة ما لا ينقال عليه وعليها في آن واحد. ولعلّ في النّزوع بالتّعجّب منزعًا استعاريًا قائمًا في جوهره على الانتقال بالحواسّ من التّفاصل إلى التّراسل ما يعزّز تصاعد خيبة أمل الذّات المتعجّبة في اللّغة وتزايد إحساسها بتعطّل علاماتها أمام حدث مغروس في فظاعة الموت ومفتوح على بشاعة "الأفول". فاللّغة، وفق هذا المنزع، ما عادت تُقرأ بالبصر والذّهن أو تُتلقّى بالسّمع، بل أضحت ممّا يُدرك بحاسّة الذّوق ويُتعجّب، بموجب ذلك، من "مرارته" (ما أمرَّ اللّغةَ الآن)، وأُخْرِجت في هيأة "مكان" مادّي معدول به عن الاتّساع والانفتاح إلى الضّيق والانغلاق (ما أضيق باب الأبجديّة).

والّذي يتحصّل لنا من كلّ هذا أن اللّغة في هذا الشّاهد الشّعريّ الأدونيسيّ لم تُقيّض لمنشئها داخل الخطاب ما به يرقى إلى مستوى "لحظته" الفاجعة الرّقيّ الّذي يسمح له بالتقاط "كثافتها" ووصف "قبحها" وإظهار أسرارها من جهة، وبالتّعبير عن موقفه منها وانفعالها بها والتّنفيس عن ضيقه بها وتضايقه من أذاها من جهة أخرى. ينبغي هنا أن نستحضر معطى مهمًّا مكمن أهمّيته في تقريبه المستعصي على القول، رغم إجماع معظم دارسيه والمعنيّين بالتّفكير فيه بضبابيّته وتفلّت ماهيته من قيود التّقعيد والتّقييد[29]، من منزلةِ خاصّيةِ شيءٍ مّا (حدث، واقع، فكرة...) ينغرس في "الفظاعة" إلى الحدّ الّذي تخذلنا فيه الكلمات خذلانًا مبينًا يقعدنا عن تعيينه وتمثيله أو إلى الحدّ الّذي يوقظ فينا شعورًا هائلًا بالقرف من شأنه أن يقطع خطابنا ويصيبه بالحبسة[30].

3. المستعصي على القول في حيِّز التّسمية

ما فتئت التّسمية تطرح نفسها على المناطقة واللّسانيّين والفلاسفة والإبستمولوجيّين والأنتروبولوجيّين وعلماء الأديان ومنظّري الأدب ونقّاده بصفتها إشكاليّة مفتوحة ومحرجة لا بصفتها إثباتا لـ"قضيّة" مّا أو إجابة قطعيّة عن سؤال محدّد. والثّابت أنّه ما كان لها لتشغل كلّ هؤلاء، على تنوّع تخصّصاتهم وتباين منطلقاتهم النّظريّة وتفاوت مقارباتهم المنهجيّة وتباعد غاياتهم وتنافر مقاصدهم، لو لم يلمسوا فيها "صورة كلّيّة" يمكنها أن تشفّ عن موقع الإنسان من العالم وأن تفصح عن الطّابع الإشكاليّ الّذي يحكم صلاته بذاته وبالآخر وباللّغة وبغيرها من "الأشكال الرّمزيّة" المُحمَّلَة بالمعنى والقابلة للتّأويل. ولعلّ استواءها محطّ تجاذبٍ بين حقول معرفيّة مختلفة كان سببًا رئيسًا في تعاظم التباسها، وتضاعف مظاهر غموضها، وتعطّل القرائن الهادية إلى كنهها والدّالّة على متصوّرها. غير أنّ أكثر ما ينبغي التّنبيه عليه في هذا الباب هو أنّه لا يمكننا أن نُغْفِلَ، رغم كلّ هذا الّذي تقدّمت الإشارة إليه، جملةً من الكلّيّات الملابسة لفعل التّسمية والسّاكنة فيه. وحسبنا في مثل هذا المقام أن نكتفي بالتّنبيه على ما يعنينا منها في ما نحن منه بسبيل كالآتي:

– التّسمية فعل إنشاء وخلق.

– التّسمية عمليّةُ وسمٍ تستهدف بَنْيَنَةَ الكونِ وتصنيف أشيائه والتّمرّن المستمرّ على تَنظيم عناصره وفق منطق مخصوص مّا.
– التّسمية شهادة اندراج في العالم وإقامة فيه على نحو من الأنحاء.
– التّسمية شكل من أشكال السّلطة الّتي يفرضها مَن يتعهّد بها على مُسمّياته ويعوِّل عليها في سعيه إلى امتلاك الأشياء وترويض المتنطّع منها تقريبًا وتبعيدًا وإظهارًا وإخفاء.

وإذا كانت هذه الكلّيّات الملازمة للتّسمية حاضرة في مختلف صنوف القول وأنماط الخطاب، وإن بدرجات متفاوتة وصيغ غير متطابقة، فإنّها تتّخذ لها أوضاعًا أعقدَ في الشّعر وأعلقَ به وأظهرَ فيه وأدلَّ عليه. فالشّاعر، إذ يسمّي، فإنّه لا يُعرب في الواقع إلّا عن تشبّثه بمطلب العبور بالعلامات اللّغويّة من دوائر الاعتباط والمصادفة والتّواضع إلى دوائر التّبرير والتّحفيز والتّصاقب من جانب، وعن حنينه إلى استعادة دوره الحيويّ الأوّل في إنشاء الكون باللّغة وخلق العالم بالتّسمية من جانب آخر. غير أنّ الإيفاء بهذين البعدين يتوقّف على سياسة القول المُعوَّل عليه في تحرير الكلمات من ذاكرتها ومن سطوة المراجع غير اللّغويّة عليها، وفي تدريبها على الذّهاب بعيدًا في استكناهِ الحُجُبِ والتقاط الأسرار المتوارية في الظّلّ واستعادة أزمنة الخلق الأولى والاحتماء بطقوس البدء المتوهّجة بأنفاس السّحر والأسطورة والدّين. ولعلّ مشروع أدونيس الشّعريّ برمّته معقود على التّرفّق في تجويد تلك السّياسة والعمل على الدّفع بها إلى أقصى مراتب تحقّقها الممكنة ترفّقًا لم يَخْلُ من عوائق وانكسارات وخيبات مردّ أغلبها إلى الاصطدام بالهوّة القائمة بين المنشود والمنجز. إذ ليس بالأمر المبذول السّهل الاهتداء إلى جواهر الأشياء المتعيّنة في الأعيان أو الهاجعة في الأذهان. بل إنّ بلوغ مثل هذه الغاية يزداد استعصاء وتمنّعا كلّما اتّسعت الرّؤى وضاقت العبارة وغامت المسالك وضاعت السّبل وانسدّت منافذ المعنى وتعطّلت موجّهات التّأويل. وحتّى يرقى الشّعر بالتّسمية إلى المستوى الّذي تغدو معه فعل ابتداء وعمل تحفيز ومغامرة استكشاف، فإنّه يتعيَّن عليه، من بين ما يتعيَّن عليه، أن يحرّر الأشياء من قيود أسمائها المكرَّسة وأن يجدّ، بعد ذلك، في إعادة تسميتها بلغة حيّة بكر تسمح بمناداتها ومكاشفة خباياها ومعرفة مواضعها من العالم. ولا عجب في هذا ما دامت التّسمية غير مفصولة في أصولها التّأثيليّة الأولى عن دلالتها على المعرفة[31].

على أنّه يبقى من المفيد في هذا الباب التّنبيه على أنّ المعرفة الّتي يراهن على بنائها الشّعر بطرائقه المخصوصة في قول الوجود وصياغة وقائعه وترويض عناصره هي غير المعرفة الّتي ينشدها العلم، أيًّا كان مجال اشتغاله وموضوع نظره. صحيح أنّ ما يُوحّد بين العالِم والشّاعر هو السّعي إلى تحصيل الهدف النّهائيّ نفسه الدّائر على هاجس تفسير العالَم، إلّا أنّ لكلّ منهما تمثّلاته الخاصّة للحقيقة المنشودة ووسائله الذّاتيّة في قولها والاقتراب منها[32]. وأيًا كانت طبيعة المعرفة الّتي يهفو إليها الشّعر ويسعى جاهدًا إلى التقاطها والظّفر بها، فإنّه من المتعسِّر أن تلين له وتتجاوب معه ما لم يختطّ لنفسه مسارات مستحدثة في مباشرة فعل التّسمية وإجرائه. وهذا ما وعاه أدونيس على نحو من الأنحاء، ولم يتوانَ عن الأخذ بأسبابه وشروطه في أغلب أشعاره يقينًا منه بأنّ لغته الشّعريّة تظلّ خارج أفق الحداثة وسيرورتها ما لم يجعل منها ضربًا في المجهول و"اختراقًا للأسماء (الأفكار والتّصوّرات) وما راكمته من انسجاميّة وتآلف"[33]. وبهذا لم يكن من المستغرب أن نجد في منجزه الشّعريّ الواسع من النّماذج والأمثلة ما يؤكّد لنا استواء التّسمية هاجسًا معرفيًّا وجماليًّا مكينًا يستبدّ بالكتابة الشّعريّة ويُلقي بأثقاله على خياراتها الفنّيّة وسيروراتها الدّلاليّة. ولعلّه لا شطط في القول إنّ مثل هذا الشّعر لم يعد، في منظور من يصاحبه ويجدّ في قراءته، يسمّي الأشياء كما لو كان الأمر مجرّد مواضعة لغويّة أو محض تعيين لمرجع ماثل في العالم، بقدر ما أضحى مغامرة لغويّة جارية إلى استعادة بكارة التّسمية واستدعاء وهجها الأوّل. والثّابت أنّه ما كان له لينحو هذا المنحى لو بقي حبيس "الأبجديّة" ومواضعاتها أو رضي بأن يظلّ سجين الشّعريّة السّائدة وأعرافها الجاهزة. لذلك لم يجد أدونيس بدًّا من صرف كلّ جهده إلى بناء الشّعر على "أبجديّة ثانية" من شأنها أن توسِّع من إمكاناته في القول وأن تسمح له بارتياد ذرى لم يعتد ارتيادها من قبل.

غير أنّ ما يلفت الانتباه في هذا الباب هو أنّ انصراف أدونيس مثل هذا المنصرف قد أبان له عن توعّر التّسمية نفسها متى أُريد لها أن تغدو ابتداءً وخلقًا وتحفيزًا، وأيقظه على تكاثر معطّلاتها عندما تنصبّ على "تجارب" تخوميّة مقيمة في "الما بين" أو لائذة بالظّل ومتملّصة من حدود العبارة ومستعصية على التّعيين. وقد بدا لنا أنّ أكثر ما يوحّد بين أغلب قصائد مجموعة "المطابقات والأوائل" هو الاشتغال بالتّسمية في المقام الأوّل والإقبال على خوض غمارها واقتحام مجهولها ومجابهة استتباعاتها. ومن أظهر تحقّقات هذا الّذي ذكرناه ما نقف عليه في قصيدته الموسومة بـ"أوّل الاسم":

أيّاميَ اسمُها
والحلمُ، حين تَسهرُ السّماء في أحزاني، اسمُها
والهاجسُ اسمُها
والعُرْسُ، حين يُمزَجُ الذّابح بالذّبيحةِ، اسمُها
ومرّةً غنّيتُ: كلُّ وردةٍ

في التّعَبِ، اسمُها
في السّفَرِ، اسمُها
هل انتهى الطّريقُ، هل تغيَّر اسمُها؟(34)

إنّ أوّل ما ينبغي أن نُشير إليه هو تعمّد أدونيس إدراج هذه القصيدة ضمن مجموعة قصائد وصفها بـ"الأوائل" أو عدّها محمولة على هذه الصّفة واختار لها عناوين متماثلة تركيبيًّا لورودها في قالب مركّب إضافي ثبت فيه المضاف المتمثّل في "أوّل" في حين تنوّعت المفردات الحالّة محلّ المضاف إليه (الشّيء، الظّنّ، الجسد، الشّعر، الكتاب، الحروف، اللّغة، العشق، الجنس، الطريق... إلخ). وهذا معناه أنّ بين هذه القصائد، على اختلاف موضوعاتها وتفاوت أحيازها وتباين أشكال بنائها، كَـلَـفًا بالبدايات والمنابع الأولى، وشوقًا إلى استعادة حرارة الخلق وطراوة لحظات التّكوين. وهو ما يضعنا إزاء شعر معنيّ بأسئلة الأصل والنّشأة و"السّكن" و"التّأسيس" و"العود الأبديّ" وما إليها. إلّا أنّنا لا نودّ من وراء سَوْق هذه الإيماءة الانصراف إلى مثل هذه القضايا المعقّدة غير المفصولة عن طقوس الخلق وألغاز الكيان. إذ ليس هذا من أولويّات بحثنا في ما نحن منه بسبيل هنا ولا هو من المقتضيات الجوهريّة الّتي يستدعيها، ضرورةً، الالتفات إلى المستعصي على القول في الشّعر، والعزم على استكشاف أغواره والغوص على مكامنه وتبيّن مسالك أدونيس في ترويضه وتذليل مضايقه. فقصارى ما نروم تبئير اهتمامنا عليه هنا هو ما يلابس القول الشّعريّ من قرائن لغويّة متمحّضة للدّلالة على عَنَتٍ في التقاط المعنى، وما يداخله من علامات واشية بتردّد في تسمية "مسمّى" فاضت ضفافه وتعدّدت أبعاده وتقلّبت منازله في الكون. فهذه القصيدة، على قصرها، لا تعدو كونها مثالًا نصّيًّا طرازيًّا يعكس، إلى حدّ كبير، "شعريّة التّسمية" (La poétique de nomination) (35) في شتّى أوضاعها ومختلف تصدّعاتها؛ وهي شعريّة تبدو لنا، هنا، محطّ تنازع هائل بين نزوع المتلفّظ إلى إحلال "متحدَّث عنها" محلًا مّا من ذاته ومن العالم ومن اللّغة من جهة، واستعصائها على طاقته التّعبيريّة القصوى وتفلّتها من إرادات تقييد جوهرها أو تسوير هويّتها من جهة أخرى.

لقد بدت لنا هذه القصيدة أشبه ما تكون باللّغز أو الأحجية بحكم دورانها على ذات أنثويّة مُستدعاة بضمير غائب متّصل خاصّ بالمؤنّث المفرد يتعاود في مواضع متماثلة في أواخر الأسطر ما عدا السّطر الخامس منها. وحتّى المُخْبَرَات بها عنها لم تزدها إلّا إبهامًا ولم تُسهم، بموجب ذلك، في المساعدة على الاهتداء إلى مرجعها المقاليّ والمقاميّ. فلكأنّنا في هذه القصيدة إزاء ذات أنثويّة غائمة الملامح وملتبسة السّمات لم يتيسّر للمتكلّم إلّا أن يُبقي على هويّتها محتفظةً بغموضها وغارقةً في ضبابيّتها، وأن يقضي بتنزّل طبيعة صلته بها في دوائر المُلغِز والإشكاليّ. ولعلّ تقليب النّظر في بنية عنوانها يقودنا إلى تفسير مآتي هذا الّذي ذكرناه وتسويغ أبعاده. فهذه العتبة النّصّيّة الافتتاحيّة الواردة في قالب تركيب إضافي ما هي في جوهرها إلّا "نصّ مصغّر" (Un micro-texte) يشفّ، من بين ما يشفّ عنه، عن انشغال بنشأة الاسم أو بمغامرة إنشائه على وجه أدقّ. إنّه، وفق هذا الاعتبار، دعوة إلى اختبار كفاية اللّغة في بسط سيادتها وسيادة المتلفّظ بها على المستهدف بالوصف والمقصود بالتّسمية. وممّا هو في حكم الثّابت عندنا أنّ شدّ الاسم بصفته المضاف إليه إلى حيّز الابتداء المعبَّر عنه بالعدد التّرتيبيّ المتمثّل في "أوّل" باعتباره المضاف إنّما هو اختيار معجميّ وتركيبيّ متعمّد القصد منه تهيئة المتلقّي لمباشرة القصيدة وفق مُوَجِّهات مخصوصة من شأنها أن توقظه على سؤال التّسمية وتدعوه إلى تعقّب أمارات تسلّله إلى متنها النّصّيّ وتبيّن أشكال تفرّعه فيه إلى أسئلة معقّدة لا تنفصل عن معضلات أنطولوجيّة وميتافيزيقيّة (النّشأة، الخلق، التّكوين...). إلّا أنّ أهمّ ما نودّ صرف عنايتنا إليه لا يتعدّى، في واقع الأمر، تلك الجهة الدّقيقة الّتي يستوي فيها عمل التّسمية عملًا مشوبًا بالوعورة والتّشعّب والتّصدّع على نحو تتأكّد معه متانة صلته بالمستعصي على القول الّذي ينعقد عليه بحثنا. وهذا هو في الحقيقة ما دعانا إلى الالتفات إليه واتّخاذ هذه القصيدة الّتي اصطفيناها من مدوّنة أدونيس الشّعريّة الواسعة حيّزَ تمثيلٍ لتعطّل اللّغة عن بلوغ أقصى طاقتها في استدعاء الأشياء، وتعثّر الشّاعر أولًا وعونه المقدود باللّغة داخل النّصّ ثانيًا في الاهتداء إلى الاسم المُؤهَّل أكثر من غيره للانطباق على "المتحدّث عنها" والغوص على "جوهرها". فكيف استحالت التّسمية هاجسًا ثقيلًا له سطوة على بنية هذه القصيدة؟ وما أثر تشعّب مناحيها وتشابك منعطفاتها في اللّغة الشّعريّة؟ هل يُعزى كلّ ذلك إلى اختلال في الكون الخارجيّ أم إلى خلل في قنوات تمثّله الذّهنيّ ومسالك استحضاره بالكَلِم؟ ما الدّوافع الّتي حدت بأدونيس إلى الارتداد بعمل التّسميَة إلى أزمنة البدء الأولى؟

تعيدنا هذه الأسئلة، متى تأمّلناها وجوّدنا التّفكير فيها والتّفكير معها، إلى المستعصي على التّسميّة بوصفه مظهرًا آخر من مظاهر المستعصي على القول. غير أنّ النّأي بها عن إطار التّجريد وفضاء التّنظير يتوقّف على توفّقنا في استخلاص أجوبتها المفتوحة الممكنة لا المغلقة النّهائيّة من بنية قصيدة "أوّل الاسم" ونظام تشكيلها على النّحو الّذي وردت عليه وانتظمت به. فممّا يسترعي الانتباه في هذا المتن النصّيّ هو توزّعه البصريّ إلى ثلاثة مقاطع غير متكافئة من حيث عدد

أسطر كلّ منها؛ فقد تكوّن المقطع الأوّل من أربعة أسطر، وجاء المقطع الثّاني في ثلاثة أسطر. أما المقطع الثّالث فلم يتخطّ سطرًا واحدًا. بقي أنّه علينا أن نُشير هنا إلى أنّ هذا التّوزيع البصريّ قد تَوافق مع توزيع دلاليّ محسوب بعناية بالغة ورؤية شعريّة محكمة. فلئن صيغ المقطعان الأوّل والثّاني خبرًا اقتضته الحاجة نفسها إلى تعقّب الأشياء الّتي تصلح أن تتسمّى بها الذّات النّصّيّة الأنثويّة "المتحدّث عنها" صلاحيّةً مُرسَلَةً مطلقةً أو مقيَّدةً ومرتهنةً بظروف محدّدة وأحوال لازمة، فإنّ صياغتهما بهذا الأسلوب لم تَخْلُ من بعض التّنويع والاختلاف؛ إذ اتّسمت في المقطع الأوّل منهما بسمات خاصّة افترقت بها عن مسلك إجرائها في المقطع الثّاني. ذلك أنّ أدونيس قدّ توسّل إلى صياغتها الأولى بأربع جمل اسميّة عزّزت دلالتها على الثّبات والدّوام والإطلاق. لكنّ هذه الدّلالات تراءت لنا أظهر في الجملة الأولى (أيّامي اسمُها) والجملة الثّالثة (والهاجسُ اسمُها) منها في الجملة الثّانية (والحلمُ، حين تسهر السّماء في أحزاني، اسمُها) والجملة الرّابعة (والعُرْسُ، حين يُمزجُ الذّابحُ بالذّبيحة، اسمُها).

ثمّ إنّ التّفاوت في مستوى بروز تلك الدّلالات المشار إليها من عدمه يرجع إلى سياسة بناء الجملة الاسميّة على نحو أفرز فوارق تركيبيّة داخليّة بين صورة تحقّقها في الجملة الأولى والجملة الثّالثة وصورة تحقّقها في الجملة الثّانية والجملة الرّابعة صاحبتها فوارق في حظّ لغة أدائها من الحقيقة والمجاز والتّصريح والإيحاء. فعلاقة الإسناد المعقودة بين المبتدأ والخبر في الجملة الأولى والجملة الثّالثة علاقة مغروسة في الثّبوت ومتحرّرة من أيّ قيد أو تقييد. وعلى خلاف ذلك، جاءت العلاقة الإسناديّة في الجملة الثّانية والجملة الرّابعة مشدودة، رغم اسميّتها هي الأخرى، إلى أحوال معيّنة تتوقّف عليها وتتحدّد بها؛ وهي أحوال يرتبط بعضها بوضع الأنا المتلفّظ (حين تسهرُ السّماء في أحزاني)، ويفترق بعضها الآخر عنه ليرتبط بغيره من الأوضاع (حين يُمزجُ الذّابح بالذّبيحة). وأيًا كان الأمر، فإنّ المتحصّل ممّا سبق، أنّ المقطع الأوّل من "أوّل الاسم" أنّ هذه المستدعاة بضمير المفرد الغائب المفرد المؤنّث والمتحدّث عنها حديث إخبار لم يزدها هذا الحديث وذلك الاستدعاء إلّا إبهامًا واشتباهًا. ففضلًا عن كوننا لا نصادف في القصيدة برمّتها تصريحًا بـ"المرجوع إليه" الّذي يحيل عليه الضّمير المشار إليه في أيّ موضع منها، فإنّ العدول عن تسميتها باسم علم أو باسم متمحّض للعَلَميّة على الأقلّ إلى تسميتها بأسماء مشتركة عامّة متحدّرة من جداول لغويّة متباعدة (أيّامي، الحلم، الهاجس، العرس) إن هو إلّا إجراء أسلوبيّ اقتضته جملة من الاعتبارات ليس أدناها من اقتناع مبدئيّ بأنّه لا مزيّة للتّسمية في الشّعر ما لم يتهيّأ لها من السّبل الفنّيّة والخيارات الجماليّة ما يجعلها عملًا خلّاقًا حرًّا تغويه فتنة الأسماء أكثر ممّا تغويه سطوة الأشياء، ويُذْكِيه الانحياز إلى الإغماض والإيحاء والتّدلال أكثر ممّا يذكيه الانحياز إلى الإخبار و"التّعيين" و"الإحالة".

صحيح أنّ مثل هذا الصّنيع الرّامي إلى إضمار هويّة "المرجوع إليه" في ضمير الغائب المفرد المؤنّث ظاهرة لافتة للانتباه في هذه العيّنة الشّعريّة المصطفاة يمكن عَدّها استجابةً لرؤية حداثيّة ممّا لا يتحدّد معها الشّعر إلّا بصفته لغة نوعيّة خاصّة ذات "سموّ" فنيّ ودلاليّ يتأتّى لها، من بين ما يتأتّى لها، من تركيز اشتغالها على دوالّها وصيغ تصريفها جدوليًّا وتوزيعيًّا على النّحو الّذي تُضحي، بموجبه، لغة غامضة لا تطمس الإحالة بقدر ما تُوجب التباسها وتقضي بضبابيّتها[36]. ورغم وعينا بوجاهة هذا التّفسير وبصلاحيّة انطباقه على الممارسة الشّعريّة الأدونيسيّة عمومًا، فإنّنا نحسب أن اكتفاءنا به لا يمكن أن يتيح لنا التّنبّه إلى مفسِّرات أخرى من شأنها أن تستجلي منابع غموض قصيدة "أوّل الاسم"، وتضيء منازل التّسمية منها، وتُبين عن حدود لغتها ومكامن قصورها. بل إنّ تقليب النّظر في هذه القصيدة العيّنة، إذ يوقفنا على معاناة المتكلّم في مطاردة سمات "المتحدّث عنها" وتعقّب تحوّلاتها والإفاقة على المحدّدات الضّابطة لهويّتها، فإنّه لا ينبّهنا في واقع الأمر إلّا على مشقّة البحث عن الاسم القادر على استيعاب مسمّاه واستيفاء مختلف أبعاده. وما هذا الجنوح إلى تعديد الأسماء المنتقاة من جداول لغويّة مختلفة إلّا شاهد على استعصاء "المتحدَّث عنها" على التّسمية وتمنّعها عن كشف "حقيقتها" وإظهار جوهرها وبسط مرجعها.

وربّما في هذا وحده ما يؤكّد لنا أنّه لا مانع من أن تنطوي اللّغة الشّعريّة، مثلما يذهب إلى ذلك جون كلود رونار Jean-Claude Renard، على آثار دالّة على ما تعجز عن قوله وتصطدم بمضايق التّعبير عنه[37]. بل إنّنا لا نرى شططًا في حسبان التّنازع بين ما ينقال وما لا ينقال قدرًا يتربّص بالشّعر وقلّما يَسْلَم منه أو ينشأ في حلّ منه أو من شيء منه على الأقلّ. ولنا في مدوّنة أدونيس الشّعريّة ما لا يُحصى من الأمثلة والشّواهد المُخترَقة في بنياتها السّطحيّة والعميقة بشتّى مظاهر التّوتّر بين المراد قوله من ناحية والمتعذّر على اللّغة الارتقاء إليه والإحاطة به من ناحية مقابلة. وما قصيدة "أوّل الاسم" الّتي نحن منها بسبيل هنا إلّا عيّنة واقعة في صلب ما يمكن أن نعتبره صورةً من صور اللّغة الشّعريّة الحداثيّة، وقد غدت في منجز أدونيس لغةً مُشْرَعَةً على "أزمتها" ومُدركةً لحدودها وواعية بمضايقها. فليس أدلّ على تمكّن هذه الصّورة من لغة "أوّل الاسم" ممّا تقدّم بيانه من ضبابيّة المتحدّث عنها وغموض مرجعها واحتجاب هويّتها. لذلك

لم يكن مدعاة إلى التّعجّب ما سبق أن وقفنا عليه في مقطع القصيدة الأوّل من قرائن واشية بما لابس قول موضوعها من حيرة ودالّة عمّا اصطدمت به مساعي الذّات المتلفّظة بها إلى تسمية ذات "أخرى" مُستدعاة بضمير الغائب المفرد المؤنّث من اختلالات وتصدّعات.

على أنّ هذا الّذي تقدّمت الإشارة إليه لم يَنْجُ منه مقطع القصيدة الثّاني أيضًا، وإن باين مقطعها الأوّل في بعض لطائف الصّياغة ومسالك البناء ودقائق المعنى. فمعه حصل ما يشبه العدول عن ملاحقة أسماء المتحدّث عنها في المطلق حينًا والمطلق المقيَّد حينًا آخر وفي اقتران بمتعلّقات المتكلّم مرّة وانفصال عنها مرّة أخرى إلى تسميتها وردةً في مقاميْ "التّعب" و"السّفر"؛ وهي تسمية ترتدّ إلى لحظة زمنيّة غائمة لفّها الانقضاء ولم يجد المتلفّظ مناصًا من استعادتها بصفتها أغنية يتذكّرها كلّما أنهكه "التّعب" وطوّح به "السّفر". إنّها، بهذا المعنى، الوردة الّتي يحتمي بها اعتدادًا بـ"هِبَةِ الحُبِّ" (Le don de l'amour) هبةً تسمح بمقاومة الموت والتّشبّث الأبديّ بوهم الخلود. وهي، إلى ذلك، رمز إلى العذريّة والولادة والانبعاث والتّجدّد والخصوبة والتّضحية[38]. وليست تخفى صلات مختلف هذه الدّلالات الّتي توحي بها الوردة، وقد استحالت اسمًا للمتحدَّث عنها في مقاميْ التّعب والسّفر، بأسئلة البدء والخلق والمعرفة. وفي هذا ما ينهض شاهدًا آخر على استواء التّسمية في هذه القصيدة وفي عدد غير قليل من قصائد أدونيس الأخرى فعلًا أنطولوجيًّا مسكونًا في جوهره بالتّطلّع إلى التقاط الأشياء مفصولةً عن معهود أسمائها ومنشقّةً عن المتداول من مواضعات اللّغة الجارية بين النّاس[39].

غير أنّه علينا ألّا نكتفي بفهم هذا الجنوح إلى تنويع أسماء المتحدَّث عنها على النّحو الّذي تقدّم إيضاحه على أساس أنّه خيار فنيّ اقتضاه تصوّر مخصوص للحداثة الشّعريّة لم يتردّد أدونيس في التّبكير بتبنّيه تنظيرًا والانخراط فيه ممارسةً في سعي منه إلى إرساء شعريّة الدّوالّ وتشييد بلاغة الغموض في توافق مع مبدأ جماليّ مركزيّ مؤدّاه أنه من شأن "تسمية شيء أن يُذْهِبَ ثلاثة أرباع متعة القصيدة"[40]، لأنّ في الاكتفاء به استبعادًا لإمكان آخر في تفسير هذا الّذي لاحظناه في "أوّل الاسم" من قلق في تعيين "المتحدّث عنها" وعَنَتٍ في تسميتها. فالّذي يعزّ علينا أن نستبعده من تفكيرنا في ما وسم مضمون هذه القصيدة من ضبابيّة وإلغاز وافتقار إلى شروط الإفادة في حدودها الدّنيا على الأقلّ إنّما هو أمر آخر أعلق بموضوع بحثنا وأشدّ استلزامًا له ما دام ناهضًا في جانب كبير منه على الأقلّ على ما بدا لنا في "أوّل الاسم" من استحالة تسمية المتحدَّث عنها رهانًا شقّ على المتلفّظ الإيفاء به واستعصى على لغة القصيدة أمر تحقيقه. والّذي نميل إلى ترجيحه في هذا الخصوص أنّ تنويع الأسماء المستقاة من جداول لغويّة مختلفة، مثلما مرّ بنا، طمعًا في تعيين المتحدّث عنها وتحديد هويّتها ما هو، في تقديرنا، إلّا قرينة دالّة على استعصاء التّسمية وإخفاق في الاهتداء إلى الاسم القادر على استيفائها.

يقول مارتن هيدغير (Martin Heidegger - 1889 (1976: "يحتاج عمل التّسمية إلى اسم. ويكون الاسمُ نتاجَ عملِ التّسميةِ"[41]. ورغم أنّنا لا نعثر في هذا القول على كشفٍ خارق للقضيّة الّتي نحن بصدد تدبّرها يمكن أن يتنكّب "الحسّ المشترك" ويزول عن معهود بداهاته، فإنّنا نراه مفيدًا من وجوه متعدّدة ليس أقلّها من جريانه إلى التّنبيه على طبيعة العلاقة المعقودة بين الاسم وعمل التّسمية. إذ يكفي أن نأخذ في الحسبان هذا المعطى الأوّليّ الّذي لا يمكن الحديث معه عن الاسم منفصلًا عن العمل المنشئ له والمُفضي إليه حتّى يتبيّن لنا أنّ لهذا العمل بوصفه سيرورة محكومة في بنية اشتغالها بهدف تروم بلوغه شأنا آخر في قصيدة "أوّل الاسم" لأدونيس؛ وهو شأن التّسمية، وقد غدت رحلة بحث يائس عن جوهر مُسمّى مؤنّث غائب وملاحقة مضنية لطيف هارب.

وممّا يؤكّد تفلّت المتحدّث عنها من أيّ اسم يُراد له أن يُعيّنها ويتطابق معها ويستوعب جوهرها انغلاقُ القصيدةِ في القسم الثالث منها بجملتين إنشائيّتين صيغتا باستفهامي تصديق:

هل انتهى الطريقُ، هل تغيَّر اسمُها؟[42]

وإذا ما حملنا هذا المقطع الختاميّ على كونه "لحظة تنوير" بمعنى من المعاني، جاز لنا أن نتدبّر تينك الجملتين الاستفهاميّتين المكوّنتين له على أساس أنّهما تعميق لغموض القصيدة، وتعليق لعمل التّسمية، ويأس من إتمامه والإيفاء بشروط اكتماله. لكنّنا، مع كلّ ذلك، نستطيع أن نلتقط منهما ما يدفعنا إلى ترجيح النّفس الصّوفيّ خلفيّةً معرفيّةً وشعريّةً ثاويةً وراء إنشائيّة "أوّل الاسم" وموجِّهةً لسياسته في التّسمية وتصريف العلامات. فـ"الطّريق" المفضي إلى "المتحدّث عنها" طريق وعرة بلا نهاية. أمّا الأسماء الّتي اصطُنعت لها وقُرنت بها فهي غير قادرة، مهما تعدّدت دوالّها وتباينت جداولها، على الإمساك بها والمساعدة على تعيين هويّتها واستجلاء جوهرها والقبض على "سرّها". وإذا رمنا تقليب النّظر في ذينك السّؤالين المترابطين والعمل على اقتراح إجابة مّا عنهما في ضوء ما سبق أن أسلمنا إليه فحص مقطعَي القصيدة الأوّل والثّاني من تساؤلات وملاحظات واستنتاجات، فإنّ قصارى ما يمكننا الانتهاء إليه في هذا الخصوص لا يتعدّى الإجابة عن السّؤال الأوّل إجابة سلب الحاصل منها نفي انتهاء الطّريق إلى معرفة المتحدّث عنها إقرارًا بانفلاتها من قيود التّسمية وضوابط التّعيين أولًا،

والإجابة عن السّؤال الثّاني إجابة إثبات المُعتبَر فيها إثبات تغيّر أسمائها وتباين صفاتها اعترافًا بأنّه ما من اسم إلّا هو موسوم بالنّقص في ذاته وعاجز عن التّطابق معها ثانيًا. ولا غرابة في هذا ما دام دأب أغلب الشّعراء النّاحين بأشعارهم منحى صوفيًا التّعلّق بمطاردة المنفلت والافتتان بمحاولات كتابة المتمنّع[43]. إذ ليست هذه المتحدَّث عنها بضمير الغيبة في قصيدة "أوّل الاسم" في نهاية التّأويل إلّا فكرة صوفيّة غيبيّة تستعصي تسميتها ويتعذّر وصفها، لأنّ عالمها هو عالم اللّامتناهي وعالم الأسرار والمراقي الّتي تفلت من كلّ تعريف وتتملّص من كلّ تقييد[44].

وأيًا كان تقديرنا لقصور فعل التّسمية في هذه القصيدة وفي غيرها من قصائد أدونيس، فإنّه ليس لنا إلّا أن نحسبه صورة من صور المستعصي على القول، ومظهرًا من المظاهر الدّالّة على أزمة شعر الحداثة عمومًا بصفتها أزمة لغويّة في المقام الأوّل[45]. ذلك أنّ مثل هذا القصور يضعنا في صميم مفارقة هائلة بين ما يهفو الشّاعر إلى قوله من جهة وما تحول كلماته دون أدائه من جهة مقابلة. ونحسب أنّ أدونيس، شأنه شأن كثيرين من أعلام الحداثة الشّعريّة العربيّة منها والغربيّة، قد وجد في هذه المفارقة قادحًا مُذْكيًا لجذوة أشعاره وباعثًا على تجدّد آفاقها وتوسّع إمكاناتها، وهو الّذي ما انفكّ يعاهد نفسه على الاحتماء بالكلمة الشّعريّة كلمةً مبتكَرة مُنتِجةً ومتمرّدةً مُغامِرةً حتّى وإن لم تُسعفها، في أحايين كثيرة، بقول ما يودّ قوله وتسمية ما يودّ تسميته. وربّما في هذا وحده ما يحملنا على اعتبار المستعصي على القول "شأنًا لغويًا"(Une affaire de langue)[46] في جانب كبير منه.

خاتمة

ما فتئت مدوّنة أدونيس الشّعريّة تُشْكِلُ على متلقّيها، وتطرح نفسها عليهم بوصفها منعقد أسئلة لا تنتهي لأسباب متعدّدة؛ بعضها ماثل فيها ونابع منها، وبعضها الآخر مفارق لها وآت من غيرها. لذلك لم يكن بالمستغرب أن يستحيل كلّ عزم على قراءتها في مجموعها أو في تفاريقها مغامرةً قلّما تسلم من المضايق والانحرافات غير المحسوبة. لكنّنا نحسب أنّ العبرة في كلّ التفاتة إليها بما تستكشفه من خباياها وبما تسدّه من نقصانها وفق ما يسمح لها به منطق تأويليّ مّا. وهذا ما حاولنا الأخذ به في دراسة عيّناتٍ شعريّة منتخَبَة من هذا المتن النّصّيّ المترامي دراسةً بنيناها على المستعصي على القول ظاهرةً استرعى انتباهنا تسلّلها إلى مستويات مختلفة منها وإسهامها في إكسابها هويّة جماليّة ودلاليّة خاصّة. ثمّ إنّ أكثر ما شدّنا إليها وأغرانا بصرف عنايتنا إليها هو مجيئها في هيئات مختلفة وتلبّسها بصور متعدّدة. صحيح أنّه ما من كتابة أدبيّة سرديّة أو شعريّة إلّا ولها منزلة من المستعصي على القول قد تتّسع وقد تضيق. إلاّ أنّ لمنزلته في معظم أشعار أدونيس شأنًا آخر كثيرًا ما تغدو منازل مركّبة ومتراكبة سوّغنا لأنفسنا أن نقتصر، لضرورات منهجيّة ومقاميّة، على تدبّر ما تعلّق منها بالمكوّن الميتاشعريّ أولًا، وما ارتدّ منها إلى عمل التّسمية وعوائقه ثانيًا.

إنّ ما لفت نظرنا في الأحياز النّصّيّة الّتي تخيَّرها أدونيس في مواضع محدّدة من قصائده وأدارها على ما هو ميتاشعريّ هو ما بدا لنا فيها ضيقًا بحدود اللّغة وتبرّمًا من اتّساع الفجوة بين المقول المثاليّ المنشود والمقول المنجز على نحو تعطّل معه النّزوع إلى قول الذّات والآخر والعالم، وحلّت محلّه، في مقابل ذلك، "غرضيّة مركزيّة" (Une thématique centrale) يستحوذ عليها انعكاس الشّعر على نفسه وانشغاله بتأمّل أولويّات إنشائه ومضايق لغته. وبهذا، غدا المستعصي على القول موضوعًا من طبيعة ميتاشعريّة يستبدّ بالقصيدة الأدونيسيّة إلى حدّ الإخلال بمقتضيات وظيفتها الشّعريّة.

أمّا عمل التّسمية فقد تبيّنت لنا متانة ارتباطه برؤية شعريّة مستحدثة كان من أثرها أن أعادت إلى شعر أدونيس كَـلَـفَه بإفلات الأشياء من معهود أسمائها وإذكاء جذوة الكلمات في بسط سلطتها على العالم واستعادة حيويّتها في إنشائه والعودة به إلى زمنه الأوّل وبكارته الضّائعة. إلّا أنّ إقدامنا على فحص قصيدته "أوّل الاسم" من هذه النّاحية قد قادنا إلى جملة من الاستنتاجات ليس أقلّها من استحالة البحث عن الاسم المؤهّل للانطباق على "المتحدَّث عنها" في صلبها والتّطابق مع جوهرها غايةً من الدّوالّ المتعاوِضَة جدوليًا وسياقيًا يصعب تفسيرها وتأويل منطق انتظامها وصيغة تولّدها خارج الأفق الصّوفيّ. وعلينا في هذا الباب الإشارة إلى أنّ التّعثّر في التّسمية، أي في الاهتداء إلى الاسم الّذي يعيّن مسمّاه ويستوفي "هويّته" إنّما هو، في واقع الأمر، تعثّر في تمثّل الآخر المُبايِن لذواتنا، سواء أكان هذا الآخر مرجعيًا أم تخييليًا، وفي ضبط موقعه منّا ومن سائر عناصر الوجود، وفي تحصيل معرفة مّا بـ"جوهره". لذلك لم يكن ثبات المسمّى وتعدّد أسمائه في "أوّل الاسم" على سبيل التّمثيل إلّا آية من آيات إفراغ عمل التّسمية من وظيفته التّعيينيّة وشحنه، في مقابل ذلك، بفائض من التّكثيف الإيحائيّ غالبًا ما يضحي في كنفه كلّ اسم "رمزًا لانتفاء اليقين، وضياع الهويّة، والسّلب"[47].

ومهما يكن من حال، فإنّ تأمّل المتن الشّعريّ الأدونيسيّ، على اتّساع ضفافه وتباين مرجعيّاته وتعقّد منعطفاته، يُوقفنا على استواء المستعصي على القول شاغلًا من شواغل نماذج متعدّدة منه وتحدّيًا من التّحدّيات المطروحة عليها. والواقع أنّه لا غرابة في هذا، ما دام جعل ما لا ينقال منقالًا وما لا

يُوصف موصوفًا أحدَ الأدوارِ الّتي يتعيّن على الشّعر الحقّ أن يَنصرف إليها وأن يضع سياسته الرّامية إلى النّهوض بها على محكّ التّجربة والإجراء. وقد بدا لنا أدونيس مشغولًا في قصائد كثيرة بتصريف القول تصاريف شتّى يدفعه إلى ذلك رهان على لغة شعريّة مبتكرة تقيم في التّجريب وتنحاز إلى المغامرة وتستضيء بجرأة الانتهاك. إذ "ينبغي لنا، عندما نجتهد في التّعبير عن المستعصي على القول، أن نعيد صياغة العبارة اللّسانيّة بابتكار كلمة جديدة، وخرق النّحو والتّركيب بل والعقل أيضًا. ووحده الشّعر في مستطاعه أن يفعل كلّ هذا"(48).

ولعلّه كان أحرى بنا أن نلتفت، ونحن نقرأ أشعار أدونيس، إلى مكامن الصّمت فيها باعتبارها مكامن يصعب التّفكير فيها من دون الأخذ في الحسبان ما يمكن أن يجيء منها مرتبطًا بالمستعصي على القول ومترتّبًا عليه ومنخرطًا في محاولات أدائه. وإذا كان الصّمت في ذاته ظاهرة مركّبة افترق في شأن تأويلها الدّارسون، فإنّ من شأن وصله بما لا ينقال أن يفضي إلى مضاعفة تركيبه وتعسير مسالك تأويله. وهو الأمر الّذي زيّن لنا إرجاء النّظر فيه ومساءلة ممكناته إلى بحث مستقلّ قد يُكتب لنا أو لغيرنا إعداده لاحقًا.

د. فتحي خليفي

باحث من تونس

الهوامش

(1) Aline Mura-Brunel et Karl Cogard, Avant–propos, in: Limites du langage: indicible ou silence, articles réunis par Aline Mura-Brunel et Karl Cogard, éd. L'Harmattan, Paris, 2002, p. 5.

(2) Jean-Claude Renard, Une autre parole, éd. Seuil, Paris, 1981, p. 15.

(3) يقول سعيد بنكراد في هذا الخصوص: "الإنسان هو الكائن الوحيد المنتج للدّلالات، وهو الكائن الوحيد الّذي يحيا بالوسائط، وهو الكائن الوحيد الّذي حوّل الأصوات إلى أشكال حاملة للمعاني. ولهذا ما كان بمستطاعه العيش في هذا الكون دون الاستعانة بالعلامات". راجع هذا القول في كتابه: السّيميائيّات: مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاّذقيّة، ط3، 2012، ص27.

(4) Giorgio Agamben, Création et anarchie: l'œuvre à l'âge de la religion capitaliste, traduit de l'italien par Joël Gayraud, éd. Payot & Rivages, Paris, 2019, p. 29.

(5) Ibid, p. 40.

(6) وفي الإطار نفسه، يقرّ محمّد شوقي الزّين، استنادًا إلى بعض كتابات المفكّر الفرنسيّ ميشال دو سارتو Michel de Certeau (1925 – 1986)، بأنّ "الكتابة هي بالأحرى صراع ومقاومة، لعبة واستراتيجيا، تدفع نحو المغامرة والرّحلات الشّائكة، يقاوم من خلالها الكاتب زيف المعنى وسلطة الحقيقة ويحتفظ بالشّعلة المحرقة الّتي تكويه من الدّاخل كجذب extase وجدانيّ متوتّر ومتواتر، هائج ومتكرّر". راجع هذا في كتابه: تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربيّ المعاصر، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2015، ص113.
Yannick Malgouzou, "Comment s'approprier l'indicible concentrationnaire? Maurice Blanchot et Georges Perec face à L'Espèce humaine de Robert Antelme", in: Interférences littéraires, nouvelle série, no. 4, mai 2010, p. 55.
لمزيد من التّعمّق في تعارضات الأدب ومفارقاته، يمكن الرّجوع إلى: Jacques Rancière, La parole muette: essai sur les contradictions de la littérature, éd. Hachette Littératures, Paris, 1998.

(7) أشارت لوسي برتران ـ لوثيرو إلى ما يعانيه "المستعصي على القول" في الدّراسات الأدبيّة وغير الأدبيّة من "فراغ تعريفيّ" مردّه في نظرها إلى ما حظي به من تعريفات مختلفة ومتباينة لا حصر لها ولا عدّ على نحو مبالغ فيه أدّى، في ضرب من المفارقة، إلى إغماض مفهومه وحجب حقيقته. راجع هذا في: Lucie Bertrand-Luthereau, L'indicible concentrationnaire et génocidaire: définition d'un nouveau concept, éd. LULU, 2014, p. 15.

(8) يعود الفضل في إفشاء هذا المبدأ في كثير من الدّراسات اللّسانيّة والأدبيّة الحديثة إلى اللّسانيّ السّويسريّ الرّائد فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857 - 1913) عندما بادر في معرض عمله على تحديد الموضوع الخاصّ باللّسانيّات بالقول: "نحن أبعد ما نكون عن القول بأنّ الشّيء سابق لوجهة النّظر، بل قد يبدو أنّ وجهة النّظر هي الّتي تخلق الشّيء". راجع هذا في: دروس في الألسنيّة العامّة، تعريب: صالح القرمادي ومحمّد الشّاوش ومحمّد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب، طرابلس ـ تونس، ط1، 1985، ص27. ولم يجد النّاقد الفرنسيّ من أصل بلغاريّ تزفيتان تودوروف (1939 ـ 2017) في غمرة انصرافه إلى تعريف الأدب وإخضاع ما ارتبط به من خصائص ومميّزات ووظائف للمناقشة والمراجعة مانعًا يحول دون إظهار حاجته إلى تشغيل هذا المبدأ (وجهة النّظر هي الّتي تبني موضوع المعرفة) في معالجة موضوعه. انظر هذا في: Tzvetan Todorov, "La notion de littérature", in: La notion de littérature et autres essais, éd. Seuil, Paris, 1987, p. 11.

(9) Michel Foucault, L'archéologie du savoir, éd. Gallimard, Paris, 1969, p. 11.

(10) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص2981.

(11) Voir sur ce point Aline Mura-Brunel et Karl Cogard, "Avans-propos", in: Limites du langage: indicible ou silence, articles réunis par Aline Mura-Brunel et Karl Cogard, op. cit, p. 5.

(12) Véronique Dahlet, "La ponctuation et les reprises de l'indicible", Linx [en ligne], no. 10, 1998, mis en ligne le 05 juillet 2012, consulté le 13 juillet 2024. URL: http://journals.openedition.org/linx/952.

(13) Astrid Von Busekist, "L'indicible", in: Raisons politiques, no. 2, mai 2001, p. 105.

(14) Yannick Malgouzou, "Comment s'approprier l'indicible concentrationnaire?: Maurice Blanchot et Georges Perec face à L'Espèce humaine de Robert Antelme", op. cit, p. 47.

(15) العادل خضر، نسيان ما لا يُنسى أو صور الأصل في الأدب: مقالات في التّأويل الأدبيّ، مسكيلياني للنّشر، تونس، ط1، 2013، ص97.

(16) Yannick Malgouzou, "Comment s'approprier l'indicible concentrationnaire?: Maurice Blanchot et Georges Perec face à L'Espèce humaine de Robert Antelme", op. cit, p. 47.

(17) مرّت الرّومنطيقيّة الألمانيّة، حسب بعض الباحثين، بثلاثة أطوار، عُدّ الطّور الأوّل منها الطّور الأشهر والأهمّ بفضل ما طلع منه من أفكار غير معهودة من قبل كان لها أن شكّلت تحوّلًا ثوريًا لا سوابق له في فهم الشّعر ووصفه والتّنظير له. والمقصود بـ"الرّومنطيقيّة الأولى" (Le premier romantisme) "رومنطيقيّة إيينا" (Le romantisme d'Iéna) الّتي امتدّت من سنة 1797 إلى سنة 1802، ووجدت لها في مجلّة أثينيوم (Athenaeum) المنبر الحاضن لتنظيرات أعلامها المؤسّسين واستدلالاتهم. وكان من أبرزهم الأخوان فريدريش فون شليغل Friedrich von Schlegel (1772 - 1829) وأوغيست فلهالم شليغل August Wilhelm Schlegel (1767 - 1845)، ونوفاليس Novalis (1772 - 1801)، وفريدريش شيلّينغ Friedrich Schelling (1775 - 1854). راجع في هذا الشّأن: André Stanguennec, La philosophie romantique allemande, Librairie philosophique J. Vrin, Paris, 2011, p. 13.

(18) يرى بعض الباحثين أنّ رومنطيقيّي إيينا كانوا الأوائل في إيلاء المستعصي على القول ما يستحقّه من عناية، إن على صعيد التّنظير أو على صعيد الممارسة. انظر من باب التّمثيل لا الحصر: Lauriane Sable, "Avant-propos", in: Interférences littéraires, nouvelle série, n. 4, "Indicible et littérarité", s. dir: Laurien Sable, mai 2010, p. 10.

(19) Cité par Tzvetan Todorov, Théories du symbole, éd. Seuil, Paris, 1977, p. 200.

(20) Jean André Wahl, Poésie, pensée, perception, éd. Calmann-Lévy, Paris, 1948, p. 24. Cité par Jean Cohen, Structure du langage poétique, éd. Flammarion, Paris, 1966, p. 20.

(21) Jean-Claude Pinson, "Poésie et irréductible", in: Épokhé, no. 3, 1993, p. 128.

(22) الوظيفة الشّعريّة هي، حسب جاكبسون، الوظيفة المهيمنة على الشّعر. راجع تفصيلًا لهذه المسألة في: Roman Jakobson, Essais de linguistique générale, t. 1: Les fondations du langage, traduit de l'anglais et préfacé par Nicolas Ruwet, éd. Minuit, Paris, 1963, p. 218.

(23) أدونيس، كتاب الحصار (حزيران 82 ـ حزيران 85)، دار الآداب، بيروت، ط2، 1996، ص5.

(24) يقطع يانيك مالغوزو بأنّ المستعصي على القول يتحدّد، أوّل ما يتحدّد، بوصفه ردّة فعل خِطابيّة (Une réaction discursive) إزاء ما لم يُرَ إطلاقًا، وإزاء صدمة أنتجها واقع موغل في غرابته ومفرط في "جحيميّته". يُنظر هذا في: Yannick Malgouzou, "Comment s'approprier l'indicible concentrationnaire? Maurice Blanchot et Georges Perec face à L'Espèce humaine de Robert Antelme, op. cit, p. 49.

(25) لا ينفصل القول، كما يرى جون ـ جاك فرنكال، عن المستعصي على القول. بل إنّه، وفق هذا المنظور، هو الّذي يمنحه مبرّر ظهوره عندما يسمه بالسّمات الّتي تومئ إليه وتدلّ عليه. راجع هذه الفكرة في: Jean-Jacques Franckel, "Au cœur de l'indicible: le verbe dire", in: Linx [en ligne], no.10, 1998, mis en ligne le 05 juillet 2012, consulté le 13 07 2024. URL: http://journals.openedition.org/linx/952.

(26) لا معنى للحديث عن المستعصي على القول في الشّعر وفي غير الشّعر بمعزل عن اللّغة. فأيًّا كان الأمر، فإنّه محكوم عليه بأن يندرج في الكلام، ومحكوم على الكلام نفسه بألّا يتجرّد من البصمات الدّالة عليه ومن الآثار المحيلة عليه. انظر توسّعًا في هذه المسألة في: Astrid Von Busekist, "L'indicible", op. cit, p. 111.

(27) غالبًا ما يشغل المستعصي على القول من مواضع التَلفّظ ذلك الموضع الّذي تواجه فيه الذّات حواجز وعقبات تحول دون قول ما تهفو إلى قوله. نحيل في هذا الباب على: Jean-Jacques Franckel et Claudine Normand, "Introduction: On ne peut pas me dire: "il faut le taire"", Linx [En ligne], 10, 1998, mis en ligne le 03 juillet 2012, consulté le 15 juillet 2024. URL: http://journals.openedition.org/linx/948; DOI: https://doi.org/10.4000/linx.948.

(28) يقول فيتغنشتاين: "حدود عالمي هي حدود لغتي".
Cité par Vassilis Vitsaxis, Le poétique: questions d'esthétique, éd. L'Harmattan, Paris, Budapest, Torino, 2001, p. 67.

(29) أشرنا في مواضع سابقة من هذا البحث إلى اصطدام معظم المشتغلين بالمستعصي على القول من وجهات نظر مختلفة (فلسفيّة، أدبيّة، لسانيّة...) بمعضلة حدّه وتعريفه اصطدامًا غالبًا ما انتهى بهم إلى الاشتراك في عدّه "مقولة ضبابيّة" (Une catégorie floue). يقول ماركو باجفيتش على سبيل المثال: "إنّ المستعصي عن القول مقولةٌ ضبابيّةٌ. هذا هو أقلّ ما يمكننا أن نقوله عنه". انظر: Marko Pajevic, "Ce qu'un poème veut dire: Paul Celan et l'indicible", in: L'indicible dans l'espace franco-germanique au XXe siècle, sous la direction de Françoise Rétif, éd. L'Harmattan, Paris, 2004, p. 106.

(30) نجد تركيزًا على هذا المعطى في: Jean-Gérard Lapacherie, "Silence et indicible dans les traités de Rhétorique", in: Limites du langage: indicible ou silence, op. cit, p. 14.

(31) يلحّ هيدغير على إبراز دلالة الأصل الإيتيمولوجيّ للتّسمية على المعرفة (La connaissance). راجع: Martin Heidegger, Approche de hölderlin, traduit de l'allemand par Henry Corbin et autres, éd. Gallimard, Paris, 1973, p. 249.

ومن الواضح أنّ فارغا قد التقط هذا المعطى وعدّه عمدة يتحدّد بها تعريفه للتّسمية عندما قال: "التّسمية هي ابتكار معرفة". راجع هذا القول في:
Aron Kibédi Varga, Discours, récit, image, éd. Pierre Mardaga, Liège-Bruxelles, 1989, p. 9.

(32) انظر في خصوص قضيّة ما بين الشّعر والعلم من اتّصال وانفصال:
Vassilis Vitsaxis, Le poétique: questions d'esthétique, op. cit, p. 70.

(33) من مآخذ أدونيس على اللّغة الشّعريّة العربيّة التّقليديّة جنوحها إلى التّوحيد بين الأشياء و"أسمائها" توحيدًا ما فتئ يمارس "ضغطه" على الشّعراء، وكثيرًا ما يقعدهم عن استئناف فعل التّأمّل في الموجودات والعمل على إعادة تسميتها واستكشاف ما حجبته "العادة" منها. راجع مقاله: الأسماء، مجلّة "كلمات"، ع9، 1988، ص ص7 – 8.

(34) أدونيس، المطابقات والأوائل (صياغة نهائيّة)، دار الآداب، بيروت، 1988، ص168.

(35) للتّوسع في شعريّة التّسمية من حيث قوانينها وأوضاعها وتصدّعاتها، يمكن الرّجوع إلى: Jean-Luc Lorber, "D'un nom à l'autre: la poétique de la nomination dans l'œuvre de Jean-Pierre Lemaire", in: Transversalités, no. 106, 2008.

(36) راجع: Roman Jakobson, Essais de linguistique générale, t. 1: les fondations du langage, op. cit, p. 238.

(37) Jean-Claude Renard, Notes sur la poésie, éd. Minuit, Paris, 1970, p. 28.

(38) ترتبط الوردة بدلالات رمزيّة متعدّدة ومتناقضة يلتبس فيها الدّينيّ بالأسطوريّ، والصّوفيّ بالعجائبيّ. ولعلّ الدّلالة الأشدّ رسوخًا فيها وتمكّنًا منها دلالتها على الحبّ في نقائه وهبته الوجدانيّة. للتوسّع في مختلف دلالات الوردة، يمكن الرّجوع إلى:
Jean Chevalier et Alain Cheerbrant, Dictionnaire des symboles, éd. Robert Laffont/ Jupiter, Paris, 1982, pp: 822-824.

(39) أشار عمر حفيّظ إلى مركزيّة التّسمية في شعر أدونيس. غير أنّ أهمّ ما استوقفنا في هذه الإشارة هو اعتداده باستحالة التّسمية في قصائد الشّاعر "تأسيسًا لتجربة أنطولوجيّة، فيها من تأمّل الوجود، بقدر ما فيها من مساءلة اللغة وكفايتها". انظر هذا في كتابه: الكتابة وبناء الشّعر عند أدونيس، دار السّاقي، بيروت، ط1، 2015، ص33. وغير بعيد عن هذا، يرى عبد العزيز بومسهولي أنّ الشّعر مع أدونيس لا يتحدّد إلّا من جهة كونه "مغامرة أنطولوجيّة يدخل من خلالها الشّاعر إلى عالم متعدّد الأبعاد، تضحي فيه الذّات تمارس كينونتها كامتداد (كذا) لاستمراريّة الوجود الإنسانيّ". راجع كتابه: الشّعر والتّأويل: قراءة في شعر أدونيس، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، ط1، 1998، ص14.

(40) من بين المبادئ النّظريّة الكبرى الّتي أقام عليها الشّاعر الفرنسيّ ستيفان ملارمي (1898 – 1842) Stéphane Mallarmé تصوّره للحداثة الشّعريّة مبدأ يمكننا أن نستخلص منه موقفه من تسمية الأشياء في الشّعر؛ وهو موقف سلب لا إيجاب، لأنّه يعدّ تسمية شيء حذفًا لثلاثة أرباع متعة القصيدة، ويوصي، في مقابل ذلك، بالعمل على إلغازه والإيحاء به. راجع هذا في:
Daniel Leuwers, Introduction à la poésie moderne et contemporaine, éd. Bordas, Paris, 1990, p. 52.

ومعلوم أنّه ما كان مشروع أدونيس التّنظيريّ والإبداعيّ مشروع استمدّ دعائمه الكبرى من أدبيّات الحداثة الشّعريّة الغربيّة عامّة والفرنسيّة منها على وجه الخصوص. وكانت مدوّنة ستيفان ملّارميّ النّظريّة والشّعريّة ذات أثر هائل في رسم معالم هذا المشروع والتّحكّم في مسارات التّفاعل مع التّراث العربيّ. يقول أدونيس: "أحبّ هنا أن أعترف بأنّني كنت بين من أخذوا بثقافة الغرب. (...) وفي هذا الإطار، أحبّ أن أعترف أيضًا أنّني لم أتعرّف على الحداثة الشّعريّة العربيّة، من داخل النّظام الثّقافيّ العربيّ السّائد، وأجهزته المعرفيّة. فقراءة بودلير هي الّتي غيّرت معرفتي بأبي نواس، وكشفت لي عن شعريّته وحداثته. وقراءة مالارميه هي الّتي أوضحت لي أسرار اللّغة الشّعريّة وأبعادها الحديثة عند أبي تمّام. وقراءة رامبو ونرفال وبريتون هي الّتي قادتني إلى اكتشاف التّجربة الصّوفيّة بفرادتها وبهائها". راجع كتابه: الشّعريّة العربيّة، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989، ص86.

(41) Martin Heidegger, Approche de Hölderlin, op. cit, p. 249.

(42) أدونيس، المطابقات والأوائل، ص168.

(43) من بين الخصائص الّتي تتفرّد بها الكتابة عند المتصوّفة مداومتها على التّعلّق بالمنفلت والانشداد إلى المتمنّع. هذا ما تبيّنه خالد بلقاسم في دراسته لأحد متصوّفة العرب القدماء ممّن قرأ أدونيس أدبيّاتهم وأفاد منها في تغذية أشعاره وإغناء عوالمها. انظر كتاب خالد بلقاسم: الصّوفيّة والفراغ: الكتابة

عند النّفّري، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء-بيروت، ط1، 2012، ص8.

(44) للتّعمّق في معرفة أثر الصّوفيّة في أشعار أدونيس، راجع: عادل ضاهر، الشّعر والوجود: دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس، دار المدى للثّقافة والنّشر، دمشق، ط1، 2000، ص ص32 – 33.

(45) يرى الفيلسوف الفرنسيّ سارتر (1905 - 1980) Sartre أنّ أزمة اللّغة قد تفجّرت، بدءًا من القرن العشرين. وهي في نظره أزمة شعريّة. انظر:

Jean-Paul Sartre, Qu'est-ce que la littérature?, éd. Gallimard, Paris, Paris, 2008, p. 22.

(46) Jean-Claude Pinson, Habiter en poète: essai sur la poésie contemporaine, éd. Champ Vallon, Seyssel, 1995, p. 110.

(47) Concetta Cavallini, "Le nom et la nomination chez Yves Bonnefoy", in: Studi Francesi, no. 155, 2008, p. 416.

(48) V. Vitsaxis, Le poétique: questions d'esthétique, p. 69.

المصادر:

1 – أدونيس (علي أحمد سعيد)، المطابقات والأوائل، دار الآداب، بيروت، 1988.

2 – أدونيس (علي أحمد سعيد)، كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت، 1996.

المراجع:

1 – أدونيس (علي أحمد سعيد)، "الأسماء"، مجلّة كلمات، ع9، 1988.

2 – أدونيس (علي أحمد سعيد)، الشّعريّة العربيّة، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989.

3 – بلقاسم (خالد): الصّوفيّة والفراغ: الكتابة عند النّفّري، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء – بيروت، ط1، 2012.

4 – بنكراد (سعيد)، السّيميائيّات: مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاّذقيّة، ط3، 2012.

5 – بومسهولي (عبد العزيز)، الشّعر والتّأويل: قراءة في شعر أدونيس، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، ط1، 1998.

6 – حفيّظ (عمر)، الكتابة وبناء الشّعر عند أدونيس، دار السّاقي، بيروت، ط1، 2015.

7 – خضر (العادل)، نسيان ما لا يُنسى أو صور الأصل في الأدب: مقالات في التّأويل الأدبيّ، مسكيلياني للنّشر، تونس، ط1، 2013.

8 –دي سوسير (فردينان)، دروس في الألسنيّة العامّة، تعريب: صالح القرمادي ومحمّد الشّاوش ومحمّد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب، طرابلس – تونس، ط1، 1985.

9 – الزّين (محمّد شوقي)، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربيّ المعاصر، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2015.

10 – ضاهر (عادل)، الشّعر والوجود: دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس، دار المدى للثّقافة والنّشر، دمشق، ط1، 2000.

11 – ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

12 - Agamben (Giorgio), Création et anarchie: l'œuvre à l'âge de la religion capitaliste, traduit de l'italien par Joël Gayraud, éd. Payot & Rivages, Paris, 2019.

13 - Bertrand-Luthereau (Lucie), L'indicible concentrationnaire et génocidaire: définition d'un nouveau concept, éd. LULU, 2014.

14 - Cavallini (Concetta), "Le nom et la nomination chez Yves Bonnefoy", in: Studi Francesi, no. 155, 2008.

15 - Chevalier (Jean) et Cheerbrant (Alain), Dictionnaire des symboles, éd. Robert Laffont/ Jupiter, Paris, 1982.

16 - Cohen (Jean), Structure du langage poétique, éd. Flammarion, Paris, 1966.

17 - Dahlet (Véronique), "La ponctuation et les reprises de l'indicible", Linx [en ligne], no. 10, 1998, mis en ligne le 05 juillet 2012, consulté le 13 juillet 2024. URL: http://journals.openedition.org/linx/952.

18 - Foucault (Michel), L'archéologie du savoir, éd. Gallimard, Paris, 1969.

19 - Franckel (Jean-Jacques), "Au cœur de l'indicible: le verbe dire", in: Linx [en ligne], no. 10, 1998, mis en ligne le 05 juillet 2012, consulté le 13 juillet 2024. URL: http://journals.openedition.org/linx/952.

20 -Franckel (Jean-Jacques) et Normand (Claudine), "Introduction: On ne peut pas me dire: "il faut le taire", in: Linx [en ligne], no. 10, 1998, mis en ligne le 03 juillet 2012, consulté le 15 juillet 2024. URL: http://journals.openedition.org/linx/948.

21 - Heidegger (Martin), Approche de hölderlin, traduit de l'allemand par Henry Corbin et autres, éd. Gallimard, Paris, 1973.

22 - Jakobson (Roman), Essais de linguistique générale, t. 1: Les fondations du langage, traduit de l'anglais et préfacé par Nicolas Ruwet, éd. Minuit, Paris, 1963.

23 - Kibédi Varga (Aron), Discours, récit, image, éd. Pierre Mardaga, Liège-Bruxelles, 1989.

24 - Leuwers (Daniel), Introduction à la poésie moderne et contemporaine, éd. Bordas, Paris, 1990.

25 - Lorber (Jean-Luc), "D'un nom à l'autre: la poétique de la nomination dans l'œuvre de Jean-Pierre Lemaire", in: Transversalités, no. 106, 2008.

26 - Malgouzou (Yannick), "Comment s'approprier l'indicible concentrationnaire? Maurice Blanchot et Georges Perec face à L'Espèce humaine de Robert Antelme", in: Interférences littéraires, nouvelle série, no. 4, mai 2010.

27 - Mura-Brunel (Aline) et Cogard (Karl), Avant-propos, in: Limites du langage: indicible ou silence, articles réunis par Aline Mura-Brunel et Karl Cogard, éd. L'Harmattan, Paris, 2002.

28 - Pinson (Jean-Claude), "Poésie et irréductible", in: Épokhé, no. 3, 1993.

29 - Pinson (Jean-Claude), Habiter en poète: essai sur la poésie contemporaine, éd. Champ Vallon, Seyssel, 1995.

30 - Rancière (Jacques), La parole muette: essai sur les contradictions de la littérature, éd. Hachette Littératures, Paris, 1998.

31 - Renard (Jean-Claude), Notes sur la poésie, éd. Minuit, Paris, 1963.

32 - Renard (Jean-Claude), Une autre parole, éd. Minuit, Paris, 1981.

33 - Rétif (Françoise) (sous la direction de), L'indicible dans l'espace franco-germanique au XXe siècle, éd. L'Harmattan, Paris, 2004.

34 - Sable (Lauriane), "Avant-propos", in: Interférences littéraires, nouvelle série, no. 4, "Indicible et littérarité", s. dir: Laurien Sable, mai 2010.

35 - Sartre (Jean-Paul), Qu'est-ce que la littérature?, éd. Gallimard, Paris, Paris, 2008.

36 - Stanguennec (André), La philosophie romantique allemande, Librairie philosophique J. Vrin, Paris, 2011.

37 - Todorov (Tzvetan), Théories du symbole, éd. Seuil, Paris, 1977.

38 - Todorov (Tzvetan), La notion de littérature et autres essais, éd. Seuil, Paris, 1987.

39 - Vitsaxis (Vassilis), Le poétique: questions d'esthétique, éd. L'Harmattan, Paris, 2001.

40 - Von Busekist (Astrid), "L'indicible", in: Raisons politiques, no. 2, mai 2001.